الملاك الألثغ الصغير

قصص

ماجد الحيدر

أمل الجديدة

الملاك الألثغ الصغير

جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الكتاب: الملاك الألثغ الصغير

المؤلف: ماجد الحيدر

ISBN: ٩٧٨-٩٩٢٢-٥٤٤-٤١-٦

لوحة الغلاف: للفنان القدير ستار كاووش

تصميم الغلاف والإخراج الفني: دار أمل الجديدة

الطبعة الأولى: ٢٠١٦

سورية - دمشق

جوال ٠٩٢٢٤٧٢٠٩٦ -٠٩٣٢٠٠٢١٢٦ -

هاتف: ٠١١٢٧٢٤٢٩٢

E-mail:ammarkordia@yahoo.co

ماجد الحيدر

الملاك الأثلغ الصغير

قصص

الفارس العجوز
وحصانه الصامت النبيل

كان التمثال يعود الى الحياة بين فترة وأخرى، هكذا، في معجزة عادية!

يفتح عينيه ويصيخ السمع ويستنشق الهواء فيشعر أن رئتيه البرونزيتين تتمددان بمشقة وتصدران صريراً خافتاً.

أول ما يفعله في كل مرة هو الاطمئنان على حصانه النبيل: يسحب الرسن الجاسئ بحركة لا تكاد تُرى فيجيبه الحصان بهمهمة خفية تعيد الدفء الى القلب المعدني.

ثم يجيل النظر في المشهد الذي يمتد أمامه ويحاول اكتشاف ما طرأ عليه من تغيير: العربات، البنايات، ثياب الناس، ولغتهم. ويروح يلعب مع نفسه لعبة اكتشاف الزمن الذي هو فيه، فيفشل أحياناً قليلة وينجح في أغلب الأحيان.

كانت المشكلة التي واجهته في أول مرة يعود فيها الى الحياة هي التكيّف مع حقيقتين صادمتين: الأولى أنه ميت. ميتٌ حقيقة لا مجازاً، ولديه مثل أغلب الموتى من رتبته السامية قبر أنيق بلوح رخامي نفيس في مقبرةٍ تظللها الأشجار.

والثانية أنه تمثال، مجرد تمثال برونزي من الحجم الطبيعي منتصب فوق حصان معدني جميل، ميت هو الآخر. وهذا يعني ضمناً أن عودته، أعني عودتهما، الى الحياة ليست كاملة تماماً؛ فلم يكن بالطبع قادراً على الترجل أو تحريك شيء من أعضائه أو الحديث بصوت عال أو التواصل مع الآخرين، باستثناء حصانه كما قد يتوقع المرء، وبقدرٍ محدود، محدودٍ لكنه كافٍ.

مثل هذه الأمور، مثل هذه المشاعر والتجارب الحسية الخارقة لا يمكن إيفاؤها الوصفَ، أعترفُ بأن كتاباً آخرين ربما نجحوا في فعل ذلك بأفضل مما أستطيع. أما أنت أيها القارئ فربما تدنو من ذلك الى حدٍ ما، غير أنك، ومهما بلغت من خيال وذكاء، ستعجز، مثلي، بالتأكيد عن الإحساس الكامل بها.

لكنه (هو) شيء آخر؛ إنه من طينةٍ أخرى، أو فلأقل من معدن آخر.

كان ملكاً سابقاً عركته الحياة وتجاربها. سمّه حكيماً إن شئتَ، وداهيةً إن أحببتَ، وشيطاناً إن رغبتَ! ولهذا استوعب الأمر بشكل سريع، بهدوءٍ ورباطة جأش.

لم تكن الأوقات التي يعود فيها الى الحياة لتتبع نمطاً محدداً أو جدولاً منتظماً. يحدث الأمر هكذا، دون مقدمات.

وينتهي فجأةً، دون سابق إنذار.

بعد أن تجاوز صدمته الأولى، وقبل أن يتطلع الى المشهد، عرف على الفور أنه في مكان قريب من النهر، فقد ملأت صدره رائحة الماء والطين والسمك والطحالب. كان جسر جديد يشرف على الاكتمال، وعلى الضفتين كانت بنايات قديمة أثيرة يعرفها جيداً قد أزيلت من الوجود لتشكل مقترباته، فشعر بخليط من الأسف والسرور. كان يحب هذا النهر حباً جماً، وكثيراً ما قضى على ضفافه ساعات السمَر الطوال وسرح بخياله في من سبقه من ملوك وأقوام وحضارات ومنّى النفس بأن يفعل شيئاً يجعل هذه الجموع المتقلبة المجادلة الصعبة المراس تذكره بخير بعد أن يضمه ترابها، لكنه لم يكن متأكداً من نجاحه في مسعاه؛ فقد اختلف الناس في شأنه كما يفعلون دائماً؛ فأحبه البعض وسموا أبناءهم باسمه، وشتمه البعض شتماً مقذعاً أصابه في كرامته. لكنه لم يفلت زمام نفسه. كان يتوقع هذا، قرأه في كتب التاريخ التي يعشقها، ووصّاه أبوه بالحذر منه قبل أن يعتلي عرشه الخشبي البسيط. وحين يعاتبه البعض على فرط تساهله كان يبتسم ابتسامة من ينوء بحملٍ ثقيل لكنه محبب ثم يجيب:

- إننا نؤسس أمّةً.. أليسَ كذلك؟

ثم يردف ذلك بحكمة قديمة أو بيت مناسب من الشعر،

وكان بالطبع يحفظ الكثير من كليهما.

...

كان يفتح عينيه على مشاهد غريبة، عجيبة، متناقضة، تثير الحزن أحياناً والفرح أحياناً والغضب أحيانا والفخر أحياناً والأمل أو اليأس أحياناً، وخليطاً مبهما من كل ذاك في أغلب الأحيان:

رأى حشوداً صامتة تتبع جنازة ملكية عرف أنها لابنه، ابنه الوحيد. رأى حروبا وطائرات تلقي قنابلها فتنثر شظاياها وتهز الأرض من تحت قدميه (ألم أخبركم أن إحدى أذني حصانه العزيز صلمت في واحدة من تلك الغارات؟) رأى حشوداً ترقص وتغني وتهتف وترفع أعلاماً ملونة وأخرى تعلق رجالاً مرعوبين في مشانق أُعِدت على عجل. رأى رجالاً غاضبين يسحلون جثثاً، وفتيةً يرشون الماء على بعضهم البعض في فرح مجنون. رأى جنوداً يقتلون جنوداً بأسلحة سريعة لم يرها في الحروب التي خاضها في شبابه. رأى مواكب أعراسٍ صاخبة ومواكب موت جماعية. رأى عمالاً يكنسون أو يصبغون الرصيف وآخرين يمتطون وحوشاً صفراء تعبّد الشوارع أو تخربها. رأى سائقي أجرةٍ يشتمون ويجدّفون وشرطةً تتبدل أزياؤهم كل مرة. رأى شعراء سكارى يتطوحون في آخر الليل عائدين الى بيوتهم وعتالين يجرجرون عربات تكدست فوقها مكعبات وأكياس

وصناديق تحرّق شوقاً لمعرفة ما بداخلها. رأى رجالاً يعلقون مصابيح ملونة وصور جنرالات باسمين تنوءُ أكتافهم وصدورهم بالنجوم والنياشين ورجالاً ينزلونها أو يحرقونها أو يدوسونها بالأقدام أو يبدلونها بصور لجنرالات غيرهم أو لرجالٍ معممين أو حاسرين أو ملتحين أو حليقين، بعضهم غاضبٌ متوعدٌ لسبب ما وبعضهم مسترخٍ ضاحك كأنه سمع للتو نكتةً جديدة!

لكنه، حتى ذاك اليوم المشؤوم، لم يشعر أبداً بمثل هذا اليأس المطبق والرغبةِ الخانقةِ في العويل: كان مشهداً لم يستطع قلبه المعدني احتمال رؤيته؛ جثث متفحمة أو مقطوعة الرؤوس والأطراف ملقاة على قارعة الطريق، وريح كريهة تضرب المكان ودخان ودوي يتصاعد من هنا وهناك. وبين الفينة والفينة يمر كهول أو نساءٌ متلفعون بالسواد يلقون نظرات عجلى ثم يمضون في طريقهم غير مبالين، أو يحدث أن يتوقف شيخ أو امرأة على إحداها ويهشّ الكلاب والذباب عنها ليتفحص الثياب ويحاول التعرف على صاحبها ثم يهز رأسه في خيبةٍ أو يلطم على صدره وهامته ويشرع في نشيجٍ خائفٍ مكتوم.

لم يستطع أن يفهم شيئاً. أحس بالدوار فهمس بصوتٍ مرتعش كسير:

- ما الذي يجري يا حصاني النبيل؟ أعرف أين نحن، ولكن "متى" نحن؟

ولم يجب الحصان سوى بهمهمته المعتادة، غير أن قطرتين من الماء الساخن نزلتا من مقلتيه الكبيرتين....

وشعر بأن ظهره ينحني من الشيخوخة. تمتم مذهولاً:

- ليتهم أبقونا في المتحف الرطب الصغير. هناك في الضفة المقابلة. هل تتذكره يا صديقي؟ بل ليتني تهشمت كسراً وجذاذاتٍ أو ذبتُ في أتونٍ مستعر!

وأحس أن جسده أخذ يتصدع بالفعل فأغمض عينيه واستعد لتوديع حصانه الى الأبد، لكن يداً رحيمة أسدلت الستار على المشهد فعاد الى رقدته الأولى.

...

لكنه عاد رغم ذلك! نعم عاد مرة أخرى بعد فترة لا أعرفها بالضبط، فالأمر، كما تعلمون، ليس بيديه، ولا يخضع لمواعيد صارمة.

لم يكن متعجلاً بل ولا راغباً في ذلك. كان وجلاً، حزيناً، مرتاباً مما رأى في المرة الأخيرة فآثر أن يسمع ويشم ما يدور أولاً:

تلك رائحة النهر العتيق تتصاعد من جديد، وهذه أبواق السيارات وشتائم السائقين وضجيج الباعة وضجيج ألحان

متداخلةٍ تملأ أسماعه وتشعره بالطمأنينة. وشيئاً فشيئاً فتح عينيه فأعشاهما ضوء النهار الباهر، وتطلع أمامه: كان ثمة عمال يكنسون أو يصبغون الرصيف وآخرون يمتطون وحوشاً صفراء تعبّد الشوارع أو تخربها وسائقو أجرةٍ يشتمون ويجدفون وشرطياً غمره العرق يحاول جاهداً أن يرتب تلك الفوضى وعتالون يجرجرون عربات تكدست فوقها مكعبات وصناديق وأكياس.

من بعيد كانت طفلتان مثل قطعتي حلوى تتمايلان تحت ثقل حقيبتيهما المدرسيتين. وحين دنتا من التمثال توقفتا قليلاً وأشارتا اليه. صاحت احداهما:

- شوفي.. هذا يشبه جدو!

فأجابت الأخرى مستنكرة:

- لا.. جدو أحلى!

وفتحت كيساً ملوناً صغيراً أخرجت منه قطعتين من رقائق صفراء لم يرها التمثال من قبل، أعطت واحدة لرفيقتها ووضعت الثانية في فمها وراحت تقرمشها بتلذذ تحت أسنانها الصغيرة فأحس بأن لعابه يسيل للمرة الأولى منذ دهور، وسمع قرقرة تتصاعد من معدته البرونزية فضحك مدارياً حرجه وهمس لحصانه:

- هل سمعتَ شيئاً؟

أجابه الحصان بهمهمةٍ جذلى. فضحك الملك العجوز من جديد وقال:

- ولو. فليسمع الجميع!

وملأ صدره بالهواء. وسحب الرسن الجاسئ خشية أن يقفز الحصان من مكانه ليرقص.. يرقصا فوق العشب المغسول!

٩ -٥ -٢٠١١

الملاك الألثغ الصغير

الملاك الألثغ الصغير علق معطفه في مسمار خلف الباب فتحرر على الفور جناحان غضّان بلون الثلج كانا مختنقين تحت معطفه، أعني معطفي الثقيل الذي أعرته إياه منذ سقط على سطح بيتي قبل خمسة أيام، جريحاً، شبه متجمد.

أوصد الباب وسلم كما يفترض بملاك رقيق وجلس بجواري، لصق المدفأة القديمة. بدا كأنه استرد عافيته تماماً، لكنه كان مهموماً لسبب ما. ومضى يحدثني وهو يفرك راحتيه أمام النار:

– "بَغد، بَغدٌ شديدٌ في الخاغِج! هنالك حيث ينام المُشَغَّدون والعشاق والفقغاء والسكاغى والمطغودون من فغاديس السماء والأغض! أشعغُ بالحزن الشديد. لماذا يوغّطهم غَبّي بهذا الشكل؟ منذ أن نزلت هنا كدت أنسى مهمتي التي جئت من أجلها. الحزن أذهلني، بل يدفعني أحيانا الى التفكيغ بالتمغد!"

أنا من جانبي لم أقل شيئاً. صببت له كأساً مخففة مرتين وناولته إياها في صمت وقربت منه صحن الزيتون الأسود. ارتشفها سريعا مثل كل مبتدئ يدفعه الحزن للسكر وواصل

الحديث وكأنه يكلم نفسه:

- "أين هذا من نزولي قبل عامين الى بلاد الجزائغ السبع! هناك أيضا كدت أنسى سبب مجيئي، أعني إغسالي. لكن ذلك كان من شدة السغوغ. يا للجمال، يا للجمال الباهغ والطمأنينة والدعة! كأني لم أغادغ الجنة قط!"

وخرجت عن صمتي بتعليقٍ محايد، بارد:

- "إسمعْ يا صغيري. لقد قرأتُ الكثير من الحكايات عن ملائكة ينزلون الى السماء. أغلبهم كانوا مرسلين في مهمة محددة: قبض روحٍ ما على سبيل المثال. لذلك لم أتفاجأ عندما رأيتك. نعم خفت قليلاً من أن تكون مرسلاً من أجلي، لكنني شعرت بطمأنينة غريبة بعد أن تحدثتُ معك. والآن، أصدِقني القول: القوم "هناك" هل يرسلونك كثيراً في مهمات الى الأرض"

- "نعم. أوه لا، ليس كثيغاً! الحقيقة.. لا أعلم! لقد كان الأمغ هكذا على الدوام منذ وجدتُ نفسي في الجنة. بالمناسبة، لقد نسيت أن أقول لك أنهم يعاملونني هناك معاملة خاصة؛ أنا مدلل بعض الشيء. كأنهم يأخذون بنظغ الاعتباغ وجودي الأغضي كصبيٍّ وديعٍ قادته قسمته الى ميتةٍ بشعة، بشعة ولكن بطولية لفتى في مثل عمغي: غبما وصل الى أسماعك شيء من تلك الأخباغ التي هزت الصحافة في شمال

أوغوبا شهوغا طويلة. ولهذا عينني الغبّ على الفوغ ملاكاً فوق العادة، ومنحني بعض الاستثناءات. إنهم هناك يحبونني كثيغاً ولا يخضعوني لكل تلك الواجبات اليومية والاستجوابات المملة والمهمات الثقيلة"

- "وهل تسنى لك رؤية الجحيم؟ أعني من باب الفضول"

- "الجحيم؟ لا لا. لا أغيد أن أغاه! يتحدثون عن أموغٍ فظيعة تجغي هناك! قلبي لا يتحمل غؤية ذلك؟"

- "ولكن ماذا لو أمروك بذلك؟" سألته وأنا منهمك في تقليب رغيف الخبز الذي لا أحبه الا محمصاً، وهو ما لقي إعجابه على ما يبدو "أعني لو وكلوا اليك مثلا مهمة تعذيب أحد المغضوب عليهم أو الضالين؟ هل ستفعل؟"

- "لو أمغوني؟ شكراً. أف.. أففففف" قال وهو ينقل قطعة الخبز الكاوية من يدٍ ليد وينفخ عليها "لو أمغوني سأطيع طبعاً. وهل يمكنني سوى ذلك؟! آه الآن تذكغت! الآن فهمت!"

- "ماذا فهمت؟"

- "قبل أيام من نزولي كنت أسيغ في إحدى القاعات هناك، أنت تدغي، هناك" وأشار الى السماء "حين سمعت بالصدفة احد الملائكة وهو يتحدث مع زميل قائلا انه يتفق مع الغأي القائل بضغوغة إغسال-ه" الى أماكن أغضية تتمتع بظغوف مشابهه للجحيم لغغض التدغيب قبل ان توكل اليه

مهمات أكثغ قسوة وجدية في الجانب الآخغ من ملكوت السماء. الآن عرفت لماذا قطعوا حديثهم عندما أبصغوني؛ لا بد أن الشخص المقصود هو أنا"

- "آها. الأمر إذن نوع من "المعايشة"

- "معايشة؟"

- "أوه. إنه من مصطلحاتنا الوطنية. كان يعني أيام الحرب ما قبل قبل الأخيرة أن يرسلوا طفلاً أو شخصاً ناعماً أو طري العود الى جبهات الحرب ليتعود منظر الدم والجثث أو ليقتلَ أحد الخصوم كي يتصلب ويصير رجلاً يحس بالمسؤولية"

- "فهمت. معايشة.. معايشة.. جميل. نعم، أنا أيضا في معايشة!"

وأخرج من مكان في الهواء قطعة من الحلوى الصلبة وراح يلعقها بلسانه وهو يهمهم غارقاً في التفكير. وتأملته.. ما الذي جاء بهذا الطفل الى هنا؟!

- "بووووووم!"

دوّى انفجارٌ قريب هز المكان فانتفض قافزا وقد فرد جناحيه القطنيين الفزعين ثم نزل الى الأرض بهدوء طاويا إياهما.

- "يا الهي. سبحانك وبحمدك! ماذا يجغي؟ ما هذا الدوي؟"

- "لا شيء" قلت له وأنا انهض لأقفل الشباك الذي انفتح على مصراعيه من قوة العصف "يبدو أن وجبة جديدة من الملائكة في طريقها الى الأعالي. دعهم "هم" يحدثونك هناك بما يجري. ستتعرف عليهم بسهولة من عيونهم الغائرة الحزينة. كن رفيقا بهم. حاول ان تنسيهم بعض همومهم. آه نسيت أن أخبرك: ثمة واحد على الأقل ممن صعد للتو الى هنالك سيجد طريقه على الفور الى الهاوية المظلمة. اذا ما صدق توقع زميليك وأوكلت اليك مهمة ما هنالك، في النار التي وقودها الناس والحجارة، لا داعي لأن أوصيك به وبرفاقه. لا تمنحهم ثانية من سكينة! هل سمعت؟ لا ترحمهم أبداً!"

- "هل هم من يفعل ذلك؟ أعني كل هذه الأموغ ؟"

- "ومن غيرهم يا صديقي؟"

- "وكيف سأتعغف عليهم هناك؟" بدا متحمسا للفكرة كطفل منحوه بندقية وأمروه بحراسة حقل على وشك الحصاد.

- "ستعرفهم على الفور من الرائحة العفنة التي تفوح منهم!"

- "هِممم. فهمتُ، الغائحة.. الغائحة!"

وحل بيننا صمت طويل كانت تتخلله بين الفينة والأخرى أصوات انفجارات وطلقات وعويل وعربات إسعاف. وكسرت

الساعة الجدارية الصمت فنظر كلانا اليها وكأننا نكتشف شيئاً غريباً:

- "آه، هو ذا يومي الخامس ينتهي. أتعلم؟ أنا لن أعود الى هناك إلا بعد يومين لكنني بدأت منذ الآن أشعغ بأنني سأفتقد كثيغا هذه البلاد. إنها لبلاد عجيبة، جميلة وقبيحة في الوقت نفسه، تملؤها المزابل والمقابغ لكنك تشعغ بأنك في إحدى حدائق السماء. أهلها غغباء الأطواغ، يضحكون وهم يتمزقون ويبكون وهم يغنون. بلاد عجيبة بلادكم هذي.. عجيبة حقاً!"

ابتسمتُ وخرجت من صدري آهة طويلة مثل زفرة حارقة.

- "لماذا تبتسم من فضلك؟"

- "لا شيء. تذكرتُ بيتا من الشعر كنا حفظناه في المدرسة وكدت أنساه"

- "بيت من الشعغ؟ واو! الله كم احب الشعغ! هلا قغأته لي من فضلك!"

- "أحقاً تحب الشعر؟ حسنا. انه بيت للشاعر... آه لقد نسيت اسمه! لكنه على أية حال يقول:

وطني لو شغلت بالخلد عنهُ نازعتني اليه في الخلدِ نفسي

- "وطني لو شغلتُ.." وأعاد البيت مرة واثنتين "جميل جميل جداً. سأنقله الى أصدقائي حين أعود الى هناك. أحقا

تحبون أوطانكم الى هذا الحد؟"

- "ربما" أجبته بصوت مختنق وأنا أشيح عنه كي لا يرى وجهي "ربما.. ربما" والتفتت اليهِ باسماً وأنا أمد له كأساً أخرى "هاك، إشغب، إشغب. لا تكثر التفكيغ. أنت في بغداد.. كلنا هنا مشغدون!"

٢٠٠٩/٧/٢٩

توابيت صغيرة للسلوى..

أو حكاية الصبي الخشبي بينوكيو وما جرى له بعد تحوله الى إنسان

يوم تحول بينوكيو الى إنسان حقيقي فرح الجد كثيرا. فها هـي الدميـة الخشـبية المشاكسـة الـتي لم تتوقـف عـن إثـارة المتاعب منذ أن نحتها مـن جذع الخشـب المسـحور ودبت فيها الحياة، ها هي تنعم أخيرا بالأمنيـة الغاليـة: أن تصبح إنسـاناً حقيقياً من لحم ودم.

الآن سـيرتاح الجـد مـن الـركض وراء الحفيـد الخشـبي. لـن يدخل مراكـز الشـرطة. لـن يضطـر الى بيـع ثيابـه لشـراء كتب مدرسية جديدة بدلاً عن تلك الـتي كـان بينوكيـو يبيعها بسـعر كلبٍ سرق أهله كلما أقدم على مغامرة سخيفة.

الآن لن يقلق عليه، لن يخاطر بحياته لإنقاذه من المآزق، لن يتـورط في بطـون الحيتـان المريضـة ومـدن الملاهـي المجنونـة والكهوف المخيفـة بحثـاً عنـه. والأهـم مـن ذلـك كلـه أنـه لـن يضطر الى تحمل سؤاله الذي صدع رأسـه:

-"جدي يا جدي متى أصبح إنسانا؟"

نعيما يا بينوكيو وهنيئا ومباركا. ها قد أصبحت إنسانا!!

...

وأرخى الجدُّ العنان لخيول الأماني: شيخوخة سعيدة كسلى، موقد كبير يدفئ عظامه المقرورة، نظارات، نظارات حقيقية بعدستين اثنتين وسلسلة ذهبية بدلاً من أعقاب الكؤوس الرمادية. لا، لا. سيكتفي بسلسلة من فضة، وربما من نحاس، فهو لا يريد أن يثقل على الحفيد المسكين.

والحفيد "المسكين" ليس حفيداً حقيقيا، لا أعني إنه لا يمتُّ الى الجد بيولوجيا فحسب، لكنه لا يمتُّ الى بني البشر.

حسناً، أنتم تعرفون القصة: لم يكن بينوكيو سوى دميةٍ خشبية نحتها الجد ذات يوم فدبَّت فيها الحياة في معجزةٍ يصعب تصديقها. وأنتم أيضا تعرفون بقية الحكاية: سيسميه العجوز بينوكيو وسيعتاد أهل المدينة رؤية المعجزة الصغيرة المشاغبة الظريفة بينوكيو.. حفيد النجار العجوز بيجيتو.

قلت إنكم تعرفون بقية الحكاية. ربما رواها لكم أحدهم، وربما قرأتموها في زمنٍ ما، وتذكرتموها وأنتم تبتسمون. لكنني أؤكد لكم أن كل ما قرأتموه في تلك القصة قد حدث بالفعل، سواء أصدقتم أم لا! وأقسم لكم أن بينوكيو قد عاش حصته التي رُسِمت له من الأعوام، ثم مات مثلما اعتاد الناس أن يفعلوا ولم يبق منه غير هذه الحكاية

التي سطّرها كاتبٌ جائع ما.

من المؤكد أنكم سمعتم بالنهاية السعيدة للحكاية؛ أعني تحوله الى إنسان حقيقي من لحم ودم. هذا كله حسن، حسن. لكنكم لا تدرون ما حصل بعد انتهاء الحكاية، أعني ما حصل "بعد" النهاية. وهذا ما سأتطوع بكل سرور لكي أرويه لكم.

...

(بينوكيو يلتقي بالثعلب والقط من جديد)

بينوكيو حسّن كثيراً من سلوكه في الشطر الأخير من حياته "الخشبية" فواظب مثلاً على حضور المدرسة وحشر رأسه الصلد بأكبر قدرٍ ممكن من الدروس، ونجح شيئاً فشيئاً في الإحساس بنوعٍ من الضمير البدائي قاده في عدد من المناسبات الى مواقف كانت تسجل لحسابه يوماً بعد يوم لدى الملائكة الموكلة بمراقبته وحمايته. فكان أن توسطت له تلك الملاك الراعية عند من هو أعلى منها، فودّع عالم وصار إنسانا. هكذا تقول الحكاية.

غير أن القطط والثعالب لا تترك المرء في حاله. القطط والثعالب.. ما بالكم؟ ألا تتذكرون؟

وقف الثعلب الأشِر وتابعه القط الأعور المصاب بالتأتأة وارتعاش الأطراف، وقفا عند زاوية الطريق الذي اعتاد بينوكيو

سلوكه كل يوم في طريقه الى المدرسة. لم يكن الأمر محض مصادفةٍ بالطبع، فهذان الوغدان لا يظهران في الحكاية إلا لغايةٍ خبيثة. لكن ظهورهما في هذه المرة كان لأمرٍ خطير، أخطر مثلاً من سرقة خمسة دنانير ذهبية أو من صفقةٍ رخيصة لبيعِ طفلٍ خشبي الى صاحبِ سيركٍ غريب الأطوار.

لم يتعرف عليهما الصبي رغم ذكائه الآدمي الطازج. كانا متنكرين بشكلٍ جعلهما هما نفسيهما يطيلان الوقوف أمام المرآة قبل أن يخرجا من بيت سيدهما القديم/الجديد ليسألا عمن يكون هذان الناسكان الزاهدان المتشحان بالسواد!

-"السلام على أخينا ورحمة من الله تعالى وبركاته!"

توقف بينوكيو والتفت حوله ليتأكد من أنهما يقصدانه، ثم لم يزد على أن قال بمرحه المعهود:

-"وعليكما!"

وانطلق في طريقه بين المشي والوثب، لكنهما أسرعا ليسبقاه ويعترضا سبيله من جديد:

-"نراكَ سعيداً أيها الأخ الفاضل!"

وتلفّت الغلام مرة أخرى، فلم يسبق أن خاطبه أحدُ بمثل هذه الكلمات الغريبة.

-"مَن، أنا ؟ نعم أنا سعيد، سعيد جداً"

-"أدام الله عليكم الأفراح وأيدكم بنعمة الانشراح! وفيم

فرحك أيها الأخ بينوكيو؟"

-"أنا فرحان، فرحان.. فرحان. أتعرفان لماذا؟ (وأقترب ليُسِّرَ لهما بما يشبه الهمس) لقد صرتُ إنساناً! أي والله، أخيرا صرتُ إنساناً!"

وهمهم الوغدان وهزا رأسيهما كي يُظهرا أنهما فهما السر الخطير.

-"وما هذا الذي تحمله بيمناك يا أخونا؟"

-"أخانا" صحح القط.

-"أ. أ.. أخينا (حسم الثعلب أمره) أخينا في الله!"

-"هذا كتاب. أنا ذاهبٌ الى المدرسة. يقول جدي إنني إذا واظبت سأنجح وربما سأصبحُ.."

-"أها.. كتاب! (قاطعه الثعلب) دعني أرى (واختطفه من يد الصبي) أعوذ بالله. أعوذ بالله! (صاح وهو يقلب الصفحات) ما هذا؟ صور؟ صور؟ وما هذا أيضاً؟ صورة بنت مكشوفة الرأس؟ أستغفر الله.. أستغفر الله"

وردد القط نصف الغافي كما لو كان يتكلم في نومه:

-"أستغفرو بالله.. أستغفرو بالله!"

ثم عطس عطسة قوية أسقطت الكوفية البيضاء التي كانت تغطي رأسه وتتسدل على نصف وجهه فلطمه الثعلب على وجهه وصاح: غبي! فإذا ببينوكيو يتعرف عليهما من فوره.

-"مـن؟ القـط المحتـال؟ (وتفـرس في وجـه الثعلـب) والثعلـب المـاكر أيضـاً؟ لقـد شـككت بكمـا مـن اللحظـة الأولى. مـاذا تريـدان منـي؟ لقـد حـذرني جـدي مـن الحـديث معكمـا. أنتمـا لا تسببان لي سوى الأذى والمصائب. هل تريدان خداعي من جديد؟ هل تريدان أن تسرقا نقودي أو تقحماني في ورطة جديدة؟"

-"معاذ الله" (صاح الثعلب المرتبك)

-"حاشا لله" (ردد القط بسرعة بعد ان تلقى لكزة منبهة قوية من صاحبه)

-"كان هذا في الزمان الماضي" (قال الثعلب)

-"من زمنٍ بعيد بعيييييد" (ردد القط وهو يباعد ذراعيه ليؤكد قوله)

-"قبـل أن يتـوب الله علينـا ويـدخلنا في رحمتـه. نحـن الآن عابدان زاهدان قانتان. نصوم النهار ونقيم الليل بالدعاء والصلاة"

-"نعم. نصلي حتى أثناء النوم!"

-"إخرس (ولكزه في بطنه) إنه يقصد أننا قليلاً ما ننام"

-"نعم. أنت تدري.. البعوضُ والرطوبة" أكد القط.

-"ولكـن النـوم المبكـر مفيـد للصـحة (قـال بينوكيـو بسذاجة) هذا ما يقوله جدي"

-"آه، جدك، جدك، دائماً جدك! اسمع يا عزيزي، لقد سهلت علينا المهمة؛ فقد جئنا إليك، قُل أرسلنا إليك، من أجل

هذا بالتحديد"

-"من أجل جدي؟"

-"نعم. من أجل هذا العجوز الذي تدعوه جدّك، من ضمن أمورٍ أخرى"

وكانت هذه المرة الثانية التي يسمع فيها كلمات بدت غريبة على مسمعه، إذ لم يسبق أن سمع أحداً يسمي جده، جده الحبيب، بالعجوز الذي تدعوه جدك. وأصاب الارتباك عقله البريء الصغير.

-"وماذا تريدان مني؟"

-"لسنا نحن من يريد. اسمع، هذا ليس المكان المناسب للحديث. تعال معنا أيها الأخ. أميرنا يريد أن يتحدث إليك"

وساقاه وهما يبتسمان في وجهه فانقاد متردداً، ثم فكر في أن يطلق ساقيه للريح، لكنه أحس بقبضتيهما وهما يشدان على ذراعيه فاستسلم لهما.

...

أسبوعٌ مضى.. ثم أسبوعان، ثم شهر.. وشهران. وبينوكيو، بينوكيو العزيز لا أثر له. وكاد العجوز يجن من الحزن والقلق. بحث عنه في كل مكان يخطر على بال، لكن دون جدوى. وازداد ظهره انحناءً.

وفجأة ظهر بينوكيو، وليته لم يفعل!

ولكن، فيم العجلة؟ لنتحدث قليلا عن لقاء بينوكيو بذلك الأمير.

...

(في قصر الأمير)

لم يسبق لبينوكيو، برغم مغامراته الكثيرة ورحلاته العجيبة في البر والبحر، أن زار هذا الجانب من مدينته، ولم يكن ليتخيل أن بيوتاً كهذه (التي يبدو أحقرها قصراً فخماً بالمقارنة مع الحانوت ذي القبو الصغير الذي أبصر فيه النور) يمكن أن توجد على بعد نصف ساعة من زقاقهم الضيق الملتوي؛ لذا فقد أصابه الدوار وهو يدير رأسه هنا وهناك ويتأمل هذه الحدائق الغناء والقلاع المهيبة والشوارع الفسيحة النظيفة حتى وقفوا أمام بوابة قصر عظيم. لكن الثعلب والقط – وبدلاً من أن يقرعا الباب أو يشدا الخيط المربوط الى جرس ذهبي صغير معلق فوق البوابة الداخلية للقصر، انبطحا أرضاً تحت السور الحجري على بعد خطوات قليلة من البوابة وشرعا ينبشان التراب تحت السور، فلم يتمالك الغلام نفسه من الصراخ:

– "ماذا تفعلان بحق الله؟ لماذا تحفران تحت السور؟"

– "نريد أن ندخل!"

– "ولماذا لا تدخلان من الباب؟ هل تعتزمان سرقة البيت؟"

– "سرقة البيت؟ هئ هئ هئ.. ولماذا نسرقه؟ إنه بيت أميرنا

الحبيب ونحن خدمه ونعيش في كنفه منذ دهور"

- "فلماذا لا تقرعان الجرس وتدخلان مثل الناس؟"

- "أوه.. هذا إذن ما أثار دهشتك؟" (قال الثعلب)

- "شَتُك" (قال القط)

- "ألا فلتعلم يا فتى أن هذه هي طريقتنا في دخول البيوت. الأمير نفسه لا يدخل بيته إلا بهذه الطريقة!"

- "عجيب!"

- "والآتي أعجب!" (قال الثعلب مؤكداً وقد رسم على وجهه ابتسامة غامضة)

ولم يكذب في هذه المرة، فما أن اقتربا من البوابة الداخلية (ولم تكن أقل فخامة من سابقتها) حتى جاءتهم من الداخل أصواتٌ غريبة متداخلة: ضحكات نسائية ماجنة، لعنات، شتائم مقذعة، نغمات موسيقية ناشزة، أصوات قرع كؤوس، وقع أقدام راقصة. دنا الثعلب من الباب ووضع خطمه على تعويذة على شكل حذاءٍ صغير من الخزف الأزرق المتآكل كانت مثبتة بمسمار صدئ وبدت غريبة وسط هذا الثراء الفاحش ثم تحدث بصوت متذلل خاشع:

-"السلام على مولانا الأمير. لقد جئناك بما أمرت!"

فسكتت الأصوات إلا من ضحكةٍ أنثوية مكتومة وصوتٍ رجاليٍ رفيع يقول:

-"كفى. قلت لكِ كفى يا شرشوحه. كفى أيتها الفاجرة الصغيرة. ليس الآن. أدخلي قاعة الحريم ريثما أنتهي من ضيوفي. آه، إيه، أوه.. كفى يا ملعونة!"

ثم فتح الباب ووجد بينوكيو نفسه داخل الصالة الكبيرة فتسمر في مكانه حين أبصر تلك الفتاة. لا لم تكن فتاةً ممن يراهنَّ ويشد شعورهن في المدرسة أو الزقاق. هذه امرأة. امرأة حقيقية. بيضاء و.. عارية، عارية تماماً! ولن أحدثكم عما جرى لبينوكيو: لقد احمرَّ وجهه واصطكت ركبتاه وتدلى لسانه نصف شبر. أما "الملعونة، الفاجرة الصغيرة" فتظاهرت بأنها لم تلاحظ دخول بينوكيو والحيوانين فانحنت الى الأرض وراحت تجمع على مهل قطع الثياب المبعثرة ثم رفعت رأسها لتبصر الفتى المسكين وتتظاهر ثانيةً بأنها قد تفاجأت بدخوله فسترت القليل من جسمها بإحدى تلك القطع وتوجهت وهي تتلوى في غنج نحو غرفة جانبية مفتوحة الباب، لكنها التفتت قبل أن تختفي وغمزت بينوكيو بعينها ثم ضحكت ضحكة مجلجلة فاستقبلتها من داخل الغرفة ضحكات أخرى.

كان الأمير يراقب كل ما يجري، وكذلك كان يفعل الثعلب. أما القط فقد افترش الأرض وانشغل بلعق قدمه كما تفعل كل القطط، وحين تأكد أن الفتى قد داخ تماماً من المشهد المعدّ سلفا صاح الأمير من كرسيه العالي:

-"مرحباً بولدنا العزيز بينوكيو. تقدم يا بني. تقدم أيها الغالي. هلمَّ الى أحضان عمك!"

لا أتذكر الكثير مما جرى لبينوكيو في ذلك الصباح، لكنني أعرف مثلاً أنه بعد أن أفاق قليلاً -قليلاً فقط - من نشوته، راح يتفرس في محدِّثه محاولاً أن يتذكر أين رأى هذا الوجه المستدير الباسم وسمع هذا الصوت الهادئ الناعم المخدّر. لكن الرجل وقد أحس بما يدور في خلد بينوكيو أسرع الى القول:

-"نعم يا بينوكيو، أنا هو. أنا سائق العربة الضاحك الذي أخذك الى "أرض الألعاب" ثم باعك وقد تحولت الى حمار بأذنين لطيفتين الى صاحب السيرك الظريف. لكنني لم أعد الشخص نفسه. قد عفا الله عما سلف (وردد القط والثعلب معا: سلف). تجارتي القديمة درَّت علي من الربح ما جعلني غنيا جداً، والغنى لله وحده. ولأنني -كما أفترض بك معرفته - محروم من الخلف الصالح فقد قررت توظيف ما أنعم الله عليّ به في كسب ثواب الدنيا والآخرة"

وأتذكر أيضاً أنه -أي من يدعونه بالأمير -تحدث كثيراً عن الجد وسأله عنه مراراً وتكراراً: ماذا يفعل غير نحت الأصنام؟ (هكذا كان يسمي الدمى الصغيرة التي يصنعها)، هل يصلي؟ هل يستقبل نساءً؟ هل يربي طيوراً في مشغله؟ هل

يعاقر الخمر؟ هل يسمع الموسيقى؟ هل يصنع الكراسي؟ وإذا صنعها فهل يبيعها للنساء؟ وكان هذا السؤال الأخير ودهشة بينوكيو البريئة عندما شرح له الأمير أن جلوس النساء على الكراسي معصيةٌ وذنبٌ لا يغتفر السببَ في أن ينهي المقابلة بلهجة حاسمة:

-"يبدو لنا، يا عزيزي الثعلب، أن ولدنا العزيز بينوكيو لا يفقه شيئاً من أمور دينه ودنياه، وكل هذا بسبب ذلك العجوز "بيجيتو" وإصراره الأحمق على إرساله الى تلك المدارس التي أفسدت العقول. حسناً يا بينوكيو. من الآن فصاعداً ستعيش معنا، هنا في هذا القصر. لن تكون بالطبع مضطراً للعمل أو الذهاب الى المدرسة، فكل هذا صار جزءاً من الماضي"

كان هذا، وأعني برم الصبي من المدارس والواجبات، نقطة ضعفه الكبرى كما يعلم جميع من في المدينة، وكما يعلم سادتي القراء الذين يتذكرون بالطبع كيف أن هذا البرم بالتحديد هو الذي دفع فتانا للالتحاق بالعربة المكتظة بالصغار الهاربين من المدارس التي كان يقودها هذا الرجل لا غيره نحو "أرض اللعب". وصفق الأمير يديه والتفت ناحية باب الغرفة إياها فتبعته عين بينوكيو المتوثبة:

-"يا بنات. جهزنَ لبينوكيو العزيز كل ما يلزمه للإقامة معكن.. معنا"

وردد القط النائم دون أن يرفع رأسه:

-"معكن.. معنا" وعاد الى الشخير!

...

(بينوكيو يزور جده)

اعتاد بينوكيو (كما تقول الحكاية) أن يغيب عن المنزل لفترات قد تطول أو تقصر كلما ألح عليه نداء المغامرة والشقاوة. كان الجد في كل مرة يشعر بالقلق الشديد ولا يقر له قرار حتى يرى حفيده من جديد. لكن قلقه، في هذه المرة، كان من نوعٍ آخر: لقد تناهت إليه الأخبار بأن الصبي ما زال في المدينة لم يبارحها، وقد أقسم له البعض بأنه شاهد بينوكيو، وقد تغير مظهره كثيراً، في صحبة مجموعة من الأوغاد المسلحين بالهراوى والسكاكين، وذهب البعض الآخر الى أنه شاهده وهو يعتدي بالضرب المبرح على مجموعة من الفتيات ويهددهن بالقتل إن ذهبن الى المدرسة مرة أخرى! لكن العجوز بيجيتو لم يكن يصدق ما يُنقلُ إليه فكان يردد في ثقة:

-"كلا. لا يمكن لحفيدي العزيز أن يكون في المدينة ولا يزورني، ثم إنه لا يمكن أن يقدم على هذه الأفعال الدنيئة. إنه غلام طيب رغم غبائه. أنا أعرفه تمام المعرفة. لقد صنعته بيدي هاتين!"

ثم ظهر فجأةً..

لكنه لم يجرِ نحو الجد كما في كل مرة لكي يرتمي في أحضانه باكياً مردداً:

-"سامحني يا جدي، لقد كنتُ ولداً سيئاً!"

لا، لم يفعل ذلك. لقد اكتفى بالوقوف عند المدخل شابكاً ذراعيه، ومن خلفه الثعلب والقط، ثم راح يجيل طرفه باستخفاف في أرجاء الحانوت وكأنه يراه لأول مرة. أما بيجيتو فقد راح يتأمله في دهشةٍ وحزن:

-"لقد تغير ولدي كثيراً" هكذا قال مع نفسه. كان الفتى قد استبدل سرواله المدرسي القصير وقبعته الصغيرة ذات الريشة الحمراء وحذائه الخشبي الذي اعتاد أهل الزقاق على وقعه المحبب برداء فضفاض أبيض يتدلى الى ما تحت ركبتيه ليغطي سروالاً من القماش نفسه يكشف عن قدمين صغيرتين مترَبتين دُسَّتا في نعلين جلديين كبيرين، أما وجهه، ذلك الوجه الطفولي الظريف الذي ربما شاهده السادة القراء على أغلفة الكتب، فقد اكتسى بسحنة من قسوةٍ وبلادة زادتهما تلك النظرة الزائغة القلقة وتلك اللحية الخفيفة غير المكتملة التي كاد الجد يجزم بأنها رسمت على وجهه رسماً بشيءٍ من الفحم أو السخام. ساد الصمت طويلاً، وكان قلب بينوكيو يخفق بقوة وهو يقاوم رغبة عنيفة بالاندفاع نحو جده، لكنه، وحين التقت عيناه بعيني

الأخير أسرع بالانشغال بمقبض سيف طويل يبدو مضحكاً وهو يتدلى من جسده الضئيل وقال مدمدماً دون أن ينظر اليه:

-"كيف حال العجوز بيجيتو؟!"

ولم يصدق الجد أذنيه. وأحسَّ بكتلة من جليدٍ تجثم على صدره وتمنى أن يفعل شيئاً، أن يصيح بأعلى صوته: أين كنت أيها الولد المشاغب العاق، أو أن يقوم ليحضنه أو ليقبله أو ربما ليهوي على وجهه بصفعة مؤلمة، لكنه غاص في مقعده يائساً محطَّماً.

...

في زيارته الثانية كان بينوكيو أكثر فظاظة وقبحا؛ فقد بدأها بأن ألقى على الجد خطبة طويلة عن الحلال والحرام وما يجب أن يفعله أو لا يفعله، ثم بدأ بانتقاده على "كل المعاصي التي يصر على اقترافها" ثم شرع بتوبيخه، ثم تهديده. وسأله، في غضون ذلك، أسئلة كثيرة بدا واضحاً أن أحدهم (وهو الأمير بلا ريب) قد لقنها إياه. وكان الجد، أثناء ذلك، يلتزم الصمت المطبق ويكتفي بالتحديق في الصبي وتأمل ما حلَّ به من تغيير. وخيل له أن أنف الفتى بدا أطول كثيراً من المعتاد وبأن حركاته عادت لتحاكي حركات دمية خشبية تشدها الخيوط. فما كان من بينوكيو، ليداري ما أحس به من شعورٍ بالهزيمة والعار، إلا أن يهوي بسيفه على عدد من الدمى

والمزهريات المعلقة على الجدران زاعقاً:

-"تماثيل، أصنام، ضلالات!"

ثم انتصب أمام الجد وهو يضم قبضته وصاح بين الغضب والتضرع:

-"أجبني أيها العجوز. لماذا لا تتكلم؟!"

-"يبدو أن القطة ابتلعت لسانه!" علق الثعلب ساخراً ثم ضحك على النكتة التي أطلقها. فالتمعت عين القط وسال لعابه وأطلق مواءً شرِهاً طويلاً!

...

(اليوم الأخير في حياة بينوكيو.. الصبي الخشبي)

-"سيدي بينوكيو. مولانا الأمير يطلبك لأمرٍ في غاية الأهمية"

قال الثعلب بتوقير كبير وهو يدخل على بينوكيو.

-"ماهذا؟ ما الذي أصابك يا عزيزي الثعلب؟ ما كل هذا الضمادات على وجهك وذيلك؟ ولماذا تعرج في مشيك؟ هل ..."

-"لا شيء يا سيدي. لا تشغل بالك. سيشرح لك مولانا كل شيء. لا. ليس من هنا. مولانا يريدك في غرفته الخاصة"

ولقد كان الأمر مهما حقاً كما قال الثعلب.

-"يا ولدي يا بينوكيو، إنك مقبلٌ على أهم اختبارٍ في حياتك. أنت تعلم بأن من يعمل معنا يجب أن ينسى كل شيء.

العلاقات القديمة، الطباع والعادات الجاهلية. بل حتى الأهل والأصدقاء"

-"الأمر يتعلق بجدي. أليس كذلك؟"

-"ما شاء الله على ذكائك يا ولد! نعم، الأمر يتعلق بالعجوز بيجيتو (صحح الأمير) لقد كنا -كما تعلم - نتصرف معه حتى الآن بتساهل شديد، إكراماً لخاطرك ولكننا.. لكننا استنفذنا معه كل الحيل. هل تدري ماذا كان رده على الرسالة التي بعثناها اليه مع خادمنا الثعلب نخيّره فيها بين ثلاثة أمور: التوبة النصوح أو الرحيل أو الموت؟ لقد ضرب أخانا بعصاه ضربا مبرحا وقال له: "اذهب الى من أرسلك وقل لهم إنكم لا تساوون عندي مسماراً صدئاً وإني سأضرب من يجرؤ على الاقتراب من حانوتي حتى أسلخ جلده!"

وخيل للأمير إنه يرى على وجه بينوكيو ظلال ابتسامة إعجاب بشجاعة جده فسارع الى القول:

-"إعلَم يا فتى بأنني، وجميع من هم فوقي، معجبون بشجاعتك وإخلاصك للقضية وعلى يقين من أنك ستفعل كل شيء تؤمر به لتغيير هذا المنكر، ولهذا (وتنحنح قليلاً ثم أردف) ولهذا فقد صدر الأمر بأن تكون أنت لا غير من سينفذ العملية القادمة: عملية تفجير حانوت الزنديق "جيبيتو"! هلم أيها البطل! سيشرح لك الأخ الثعلب كل التفاصيل ثم تخلد الى النوم مبكراً.

ستوقظك الجميلة شرشوحة عند الفجر لتذهب على بركة الله. وعندما تعود، ستكون، بإذن الله، في انتظارك. ستكون جائزتك. أعرف أنك مغرمٌ بها.. هئ.. هئ.. هئ!"

لكن بينوكيو لم يغمض له جفن حتى الفجر: كان يتقلب يميناً فتقفز الى ذهنه صورة شرشوحه يوم رآها أول مرة، ويستدير يساراً فيرى صورة جده وهو جالس يقرأ له في كتابٍ مصورٍ قديم، ويعود لينقلب يميناً فيرى صورة الأمير بوجهه المستدير الناعم الذي يشبه كرةً من الزبدة الطرية، فيستدير ثانية ليرى صورة الجنية الراعية التي حولته إنساناً وهي تدير ظهرها غاضبة وترفرف بجناحيها الذهبيين، فينقلب على ظهره ليرى في السقف جُدجُد الليل، صديقه اللدود.. الصرصور الرمادي الذي لم يكن له من عملٍ في الدنيا سوى إزعاجه بنصحه وتوبيخه (كان هذا الجدجد المسحور يعود الى الحياة كما تعرفون بعد كل مرةٍ يضيق به بينوكيو ذرعاً ويضربه بأي شيء يقع في يديه ليسحقه تماماً)

وحل الفجر، وتوجه بينوكيو، برفقة الثعلب والقط، الى الزقاق القديم. وتوقف الأخيران قبل أن يصلا الى حانوت الجد وسلماه الكيس الأسود الثقيل وصافحه الثعلب بحرارة:

-"على بركة الله أيها البطل! سنبقى هنا على مسافة مناسبة لنراقب المكان!" (كان يكذب بالطبع فقد كان

يخشى أن يقع حطأ يطير أشلاءه العزيزة!)

وقرفص بينوكيو تحت الواجهة الزجاجية وبدأ الحفر. وكان صوت الجُدجُد لا يبارح أذنيه:

-"أنت ولد سيء. سيء ومغفل يا بينوكيو. لقد أخطأت الجنية بتحويلك الى إنسان. مغفل. هل تذكر يوم أقنعاك بزرع دنانيرك الخمسة لتثمر كنزاً؟! لقد كنت تحفر هكذا. هكذا بالضبط.. مغفل!"

وانتهى بينوكيو من زرع القنبلة، وأهال عليها التراب، وعاد الى صاحبيه ساهماً ممتقع الوجه فاستقبله الثعلب بالأحضان:

-"مرحاً. عاش بطلنا بينوكيو!"

-"عاااااش!" (ردد القط وتأبط ذراعه ليمضوا عائدين. لكن الفتى انتزع ذراعه سريعا وانعطف نحو شاطئ النهر القريب:

-"أريد أن أجلس لوحدي قليلاً"

وانقاد الحيوانان صامتين. جلس بينوكيو على مصطبة حجرية قديمة. وراح الثعلب يروح ويجيء فاركاً كفيه في سرور. أما القط فقد افترش العشب وغط على الفور في نوم عميق. وطال جلوس الغلام فتململ الثعلب وأحس بشيءٍ من الريبة فأخذ يثرثر:

-"أتدري أيها القائد بينوكيو؟ بطولتك هذه سوف تخلدها

بطون الكتب. كتبنا نحن بالطبع لا تلك الكتب الزنديقة التي يوزعونها على أطفال المدارس! أتدري؟ ربما نصبوك أميراً. ولم لا؟ الأمير بينوكيو. بينوكيو الذي لا يعرف في الحق أباه.. ولا جدّه!"

ولم يجب بينوكيو. بل بدا كأنه لم يسمع شيئاً.

-"ماذا نفعل هنا؟ فلنعد الى القصر. لا تقلق، ستتفجر القنبلة في موعدها. عندما يتجمع التلاميذ وهم في طريق المدرسة ليتفرجوا على الأصنام الجديدة التي صنعها الزنديق. وستكون أنت ساعتها في أحضان شرشوحة الجميلة. أنظر، ها هي الشمس تشرق. هيا. بقاؤنا هنا غير مناسب. ماذا تنتظر؟ هيه. يا ولد.. ما بك.. ألا تسمعني؟"

وانتفض بينوكيو فجأة وكأنه استفاق من نومٍ عميق وصرخ مرعوباً:

-"جدي!"

وشرع بالركض نحو الحانوت فاعترض الثعلب طريقه رافعاً خنجراً استلّه من مكان ما تحت ثيابه:

-"هذا ما كنا نخشاه ونحسب حسابه: أن تجبن في اللحظة الأخيرة"

ورفع خنجره، لكن بينوكيو كان أسرع منه فانقض عليه بضربة كومته على الأرض. وأطلق القط الذي كان يراقب المشهد بعد أن أيقظه الصراخ مواءً فزعاً ولاذ بالفرار.

كان بيجيتو يهم بالخروج من الحانوت ليشتري قدح الحليب اليومي عندما أبصر بينوكيو وهو يركض نحوه كالمجنون وينادي باسمه، فأسقط جعبة الحليب الفارغة وفتح ذراعيه ليستقبل حفيده، لكن الأخير لم يرتمِ في حضنه كما توقع، بل جثم على الأرض وشرع يحفر ببيده وأظفاره رافعاً نحوه مرتين وثلاث عينين تصبان دمعاً غزيراً وهو يردد كالمحموم:

-"سامحني يا جدي. لقد كنت ولداً سيئاً. لكنني لن أكرر ذلك. أعدك بأن أكون ولداً طيباً. أعدك..."

وقبل أن يفهم الجد المذهول ما يجري أو يعثر على كلمات يجيب بها، كان بينوكيو قد نهض محتضناً كيساً أسود يغطيه التراب ثم هوى على يد الجد وقبلها قبلة سريعة وانطلق مبتعداً كالسهم وهو ينادي:

-"سامحني يا جدي.. سامحني"

وصاح الجد وراءه:

-"بينوكيو .. ولدي بينوكيووووو!"

واستدار الفتى راكضاً نحو قطعة الأرض الخلاء القريبة من النهر وقبل أن يصل الى الجرف دوى انفجارٌ عظيم، وارتفعت سحابة من دخان أسود.. وطافت على صفحة الماء قطع صغيرة من خشب.. من خشب متفحم ملطخ بالدماء.

...

(توابيت صغيرة للسلوى)

يقولون إن الجد قد جن في أخريات أيامه. ويقولون بل هو الحزن الذي أذهله لا الجنون.

كان يغيب أياما وأياما في ورشته الصغيرة ثم يكتشف الناس في إحدى الصباحات مجموعة رائعة جديدة منها في المعرض الزجاجي الصغير الملاصق للباب. كانت تنفذ بسرعة البرق، خصوصاً وإن النجار العجوز كثيراً ما ينسى أن يتقاضى ثمنها. توابيت صغيرة فائقة الجمال مصنوعة من أنفس أنواع الأبنوس. صغيرة لا تتسع حتى لرضيع. حُفرت على جوانبها كلمة واحدة تكرر وتكرر: آه.. آه.. آه.

وعلى الغطاء الأسود الصقيل نقشت رسوم غريبة: ملائكةٌ مجنحة، حيتان، ثعالب، قطط، وجوه سمينة ضاحكة، صراصير باكية، ودُمىً، أراجوزات أحيطت رؤوسها بهالاتٍ من نور وكتابات لم يعرف أحد معناها بالضبط:

لا تأمل الكثير.

لا تحلم بنظاراتٍ من فضةٍ أو ذهب.

لا تبك كثيرا وراء الراحلين.

من كان من خشب الى خشبٍ يعود.

٢٥ -٤- ٢٠١٠

هامش عن الحكاية الأصلية

ظهرت حكاية بينوكيو لأول مرة عام ١٨٨٣ وكانت من تأليف الكاتب الإيطالي كارلو كولودي، ثم ظهر العديد من الأفلام والحكايات والأعمال الفنية المستوحاة منها. هنا إحدى الترجمات العربية الموجزة وبتصرف:

كان الفنان "بيجيتو" يعيش وحيدا في بيت خشبي صغير حيث كان يصنع دمى رائعة من الخشب للأطفال. صنع ذات يوم دمية من خشب الصنوبر وزودها بخيطيين ليتمكن من تحريكها، كانت الدمية رائعة الجمال فسماها "بينوكيو" ورفض أن يبيعها، وتمنى أن يتحول "بينوكيو" إلى صبي حقيقي، لأنه ليس عنده أولاد.

امتلأت غرفة "بينوكيو" بضوء ساطع، وظهرت الحورية "شعلة" التي جعلت "بينوكيو" يتحرك بدون خيوط، أخذ "بينوكيو" يقفز بفرح شديد، فقالت له الحورية : لكي تصبح ولدا حقيقيا عليك أن تكون ولدا صادقا شجاعا وغير أناني، وأوصته أن يستمع لنصائح "جدجد الليل" الصرصور الصغير الذي يعيش في منزل "بيجيتو."

ذات صباح، بينما كان "بينوكيو" ذاهبا إلى المدرسة، رآه

الثعلب المحتال "دويهي" ورفيقه القط "جدعون"، وقررا أن يبيعاه إلى "طمبولي" صاحب استعراض الدمى الراقصة، وأقنعاه انه سيصبح نجما مسرحيا غنيا وشهيرا ونصحه صديقه" جدجد الليل" أن يذهب للمدرسة وأن لا يستمع لهذا الكلام.

"بينوكيو" ذهب ورقص في عرض الدمى، وفرح جدا لسماع التصفيق، وبعض العرض أعطوه قطعة نقود ذهبية، وعندما كان "بينوكيو" يستعد للعودة للمنزل، منعه "طمبولي" وحبسه داخل قفص، ولكن الحورية "شعله" أنقذته، وعندما سألته لماذا لم يذهب للمدرسة؟ كذب عليها.

ما إن نطق "بينوكيو" بالكذبة، حتى أخذ أنفه يطول أكثر فأكثر ولما اندهش "بينوكيو"، أخبرته الحورية "شعله" أن هذا ما سيحدث لأنفه كلما كذب، فوعدها أنه لن يفعل هذا أبدا، وقال أنه سيذهب للمنزل فورا.

في المساء اتفق سائق العربة الشرير مع "دويهي" و"جدعون" أن يعطيهما مالا كثيرا إذا نجحا في خطف عدد من الأولاد، وأقنعا "بينوكيو" أنه سيقضي وقتا سعيدا إذا انضم لباقي الأولاد الذاهبين إلى جزيرة الألعاب، وهي مدينة للملاهي كل الألعاب فيها مجانية، وهناك تعرف "بينوكيو" على صديق جديد اسمه "شقاوة"، ونصح "جدجد الليل" صديقه "بينوكيو"

أن يعود إلى البيت، لكن "بينوكيو" رفض فقرر "جدجد الليل" أن يعود وحيدا.

وعندما كان "جدجد الليل" يغادر الجزيرة، شاهد قاربا عليه أقفاص بها حمير، وكان واحد من الحمير يبكي ويتوسل لصاحب العربة أن يتركه يذهب للبيت، رفض صاحب العربة وأخبرهم أن هذا ثمن الألعاب التي لعبوها في جزيرة المرح، فأسرع "جدجد الليل" ليحذر "بينوكيو".

و لما بدا "شقاوة" يتحول إلى حمار إعتقد "بينوكيو" أنها مجرد مزحة، فأخذ يضحك وبسرعة بدا يظهر له ذيل حمار، وأصبحت إذناه طويلتين يكسوهما الشعر، فهرب "بينوكيو" و"جدجد الليل" من الجزيرة، ولكنهما لم يجدا جد "بينوكيو" في البيت، وعرفا أنه ذهب للإبحار بقاربه للجزيرة فابتلعه حوت ضخم اسمه "قنطار".

بسرعة قفز "بينوكيو" و"جدجد الليل" في المحيط، وأخذا يمشيان في قاعه العميق حتى وصلا إلى "قنطار". كان "قنطار" نائما طوال الوقت، ولما شعر بجوع شديد ابتلع سربا من الأسماك، فاصطاد "بيجيتو" واحد منها ليطهوها، وفوجئ بـ"بيونكيو" ممسكا بذيل السمكة.

فكر "بينوكيو" في طريقة للهروب، فأشعل نارا تصاعد منه دخان كثيف. جعل "قنطار" يعطس، فأسرع "بينوكيو" و"جبارة"

وخرجا من فم الحوت، ولم يكن "جبارة" يعرف السباحة.

أخذ "بينوكيو" يسبح وهو يمسك "بيجيتو"، حتى وصلا إلى الشاطئ. كان الجهد الذي بذله "بينوكيو" الشجاع لإنقاذ جده كبيرا جدا، فسقط على الأرض من شده التعب.

عندما أفاق "بيجيتو" وجد "بينوكيو" ملقى على الشاطئ، أخذ "بيجيت" و"بينوكيو" إلى البيت، وأنامه على السرير فظهرت الحورية "شعلة"، وأيقظت "بينوكيو" وهنأته لأنه استطاع أن يثبت أنه شجاع وصادق وغير أناني، ووفت بوعده ووجد "بينوكيو" نفسه ولدا حقيقيا.

أقام الجميع احتفالا كبيرا، وشكروا الحورية "شعلة" وعاش "بينوكيو" مع جده "بيجيتو" في سعادة.

الإله الأعسر

لأنه كان أعسر كانت بقية الآلهة تعامله بطريقة أخرى: تعتزلهُ وتُفرِدهُ وتسخر منه.

تراكَمَ الحزن على قلبه حتى أصبح عقدة مستعصية فقرر اللجوء الى طبيب نفسي شهير.

لم يكشف شخصيته أمامه بالطبع. ومَن المغفل الذي يدخل على طبيب نفسي ويقول له:

-مرحبا دكتور أنا الإله فلان الفلاني، المختص بالـ..!

ولأن الطبيب تعلم قاعدة ذهبية تقول إن أولى مستلزمات التحليل النفسي هي الصراحة التامة لكشف ما ترسب في اللاوعي، فقد فشل العلاج فشلاً ذريعاً، وظل يعاني من عقدته، ففكر وفكر.

وأخيراً قرر أن يخلق من يشبهه في عزلته ووحدته وانكفاء الناس عنه.. فخلق الشعراء!

١٤ -٨ -٢٠١١

CH_3CH_2OH

ذات يوم اجتمع ثلاثة حكماء مجانين وقرروا أن يصنعوا شيئاً جديدا.

كان الأكبر شيخاً ذا مليون وجه، رقيقاً، هشاً حيناً، صلباً قاسياً حينا، متقلب السحنة بين تجهمٍ وبريقٍ يخطف الأبصار، وكان الآخران يجلّانه أيما إجلال ولا يتكلمان في حضرته إلا همساً.

أما الثاني فكان امرأة، نعم امرأة، فتية أبداً، مغناج، أثيرية الطباع. وكان مكتوباً في الأقدار أن أحد السحرة الفرنسيين الذين دفنوا أنفسهم في قبوٍ خانق، سيطلق عليها هذا الاسم الغريب الذي يبدو مثل صرخة فرح أو إعجاب بهذه الأنثى التي لولاها ما كانت حياة، ليظل ذلك الاسم عالقاً بها حتى لتنسى اسمها القديم الذي أطلقه عليها أول المجانين!

وكان الثالث فتى خفيفا نزقاً سريع الغضب يعشق تلك الغادة ويجري خلفها منذ الأزل ولا يمل من الالتصاق بها والجري معها في كل وهدةٍ ووادٍ!

اجتمع الثلاثة كما اعتادوا منذ القديم، وقرروا أن يصنعوا

شيئاً جديدا. في خفيةٍ عن أعينِ الآلهةِ.

سبق لهم بالطبع أن جلسوا سوية، ثلاثتهم فقط أو برفقة ضيوفٍ طارئين، وكانوا في جلساتهم تلك يصنعون الأعاجيب: أجسادا حيةً ناطقة، دماً، ورقاً، سيوفاً، آلات موسيقية، صخوراً غريبة، حلياً، أقلاماً، وقوداً، أشجاراً باسقات وبقولاً لا تكاد ترفع رأسها عن الأرض. آها.. الأرض! وما كانت الأرض هي الأخرى لولاهم؟

-"إذن سنصنع شيئاً جديداً.. وسنهديه الى بني الإنسان"

-"ليكن شيئاً يدخل السرور الى القلوب الحزينة"

-"والأمل الى اليائسين"

-"والشجاعة للمترددين"

-"والسلوان للخاسرين"

-"فلينطق بعونه لسانُ المتلجلجين"

-"وليملأ القساةَ بالرحمة"

-"وليدفع الإنسان للرقص"

-"والبكاء"

-"والسخاء"

-"والإقدام"

-"ولينزع الأقنعة عن وجهه"

-"والأصفاد عن خياله"

وجلسوا حول النار المقدسة. وانتزع الشيخ ضلعين من صدره الفاحم، وترددت الحسناء ثم مدت يدها تحت ثديها البض وانتزعت ضلعاً واحداً.. واحداً فحسب. وصاح الفتى العاشق المقدام:

- "لضلعٍ واحد من سيدتي المتمنعة المتعالية سأمنح ستة أضلاع من صدري الملتهب بالعشق!"

وألقاها الى القدر الذهبية. وارتفعت النار..!

ومضى أربعون يوماً. أداروا السائل الأثيري في قارورة عجيبة التصاوير. ونزلوا الى الأرض. حطوها عند عتبة الكوخ الطيني. وطرقوا مرتين. ثم حلقوا في الغمام يتفرجون.

وفتح الإنسان الباب. ولم ير غير القارورة، فرفعها الى فمه. وكان ذلك يوماً مباركاً في الأيام!

٢٠١١/٨/١٣

الأغنية

كان رجلان يغنيان، أو بالأحرى: كان ثمة رجلٌ عاشقٌ يغني.

صديقه كان يدندن معه، ويكتفي بهز رأسه أو تحريك شفتيه بين الحين والحين، إذ لم يكن، مثل الرجل الأول، يحفظ كلمات الأغنية، بل إنه، إن شئنا الحق، لم يكن بالأصل ذا صوت جميل ولا حاذقاً في أصول الغناء ومقاماته.

كلاهما كان نصف ثمل، وإن كان الأول أقرب الى السكر. ولمَ لا؟ إنه الربيع. إنه المهرجان، والأطفال، والعشاق، والثياب الجريئة التي تملأ الشوارع والحدائق والساحات.

وشيئاً فشيئاً تجمع الناس حولهما..

شيئاً فشيئاً سكت الضجيج. وبقيت الأغنية الهادرة العجيبة تحلق في الهواء الذي سكن فجأة، وتحمل الأفئدة، ترفعها وتدنيها.

وتوقفَ الزمان..

لكنها هدأت، ثم خفتت، ثم خبت.. انتهت كما تنتهي الأشياء.

غير أن العاشق. ظل يغني، وإن لم يسمعه أحد. متنحياً عن الحشد، راقصا، دائراً حول نفسه كالدراويش، ومن عينيه الغائبتين عن الوجود كان سيلٌ رائقٍ من اللآلئ.. ينزل على نحره!

وكان الرجل الثاني منشغلاً بالانحناء للجمهور. شاكراً سيل التصفيق، ممتناً لصيحات الاستحسان!

٢١ -٥- ٢٠١٢-

محاضرة

الصمت يخيم على القاعة، حتى لتكاد تسمع دبيب النمل، لو كان للنمل أن يجد طريقه اليها. والمحاضر الصامت الوقور، ذو النظارتين السميكتين، منهمك منذ ما يقارب الساعة في تحريك شفتيه، مستعينا بيده اليمنى أحيانا، وبالاثنتين معا أحياناً أخرى.

وكان الجمهور، هو الآخر، صامتاً بالطبع، وإن كنت ترى بين الفينة والأخرى هزات استحسان من الرؤوس السوداء والبيضاء، والجرداء. بل انه انفجر، لمرتين أو ثلاث، في تصفيق عاصف.. صامتٍ بالطبع.

وحين انتهت المحاضرة، المنقولة على الهواء، تقدمت شابة جميلة وقدمت للمحاضر باقة من زهور الثلج، وتقدم الحاضرون الممتنون في صمت كي يلتقطوا الكثير من الصور الفوتوغرافية التي قالت كل شيء!

٢ -٥ -٢٠١٢

حديث جانبي على هامش ندوة

- "أتوقع لك مستقبلاً زاهراً!"

وربت الناقدُ "الكبير" على كتف الكاتب الشاب الذي أوصيَ به خيراً ثم أردف كمن يتخلصُ من منديل مستعمل:

- "عليك فقط أن تواصل الكتابة. لا تدع قلمك يجف!"

- "لا تقلق يا سيدي من هذه الناحية"

أجاب "الكاتب" الشاب مبتسماً ببلاهة، ثم حك قذاله وأضاف:

- "أنا أصلاً أستخدم أقلام الرصاص!"

- "حسنا تفعل. ولكن لا تنس المحاة. أنا لا أخرج دون ممحاة، حتى لو نسيتُ اصطحاب قلمي!"

٢١ -٥ -٢٠١٢

سبع قصص قصار جدا
عن نهايات السفر

(١) فراشة

حطت الفراشة على كفه وارتعشت قليلاً، ثم رقدت جثةً هامدة. هكذا، دون سبب معلوم.. ماتت!

-"ربما كانت تَعبى.."

حدّث الرجل نفسه

-"ربما كانت عجوزاً. وربما أصابها، مثلي.. سقمٌ لا تفهمه..."

(٢) أمنية رجل عجوز

-"ليتهم.."

قال الرجل العجوز وهو ينظر الى الألعاب الكثيرة في مدينة الملاهي التي اصطحب اليها حفيديه.

-"ليتهم صنعوا لعبة واحدة للشيوخ من أمثالي"

-"وكيف سيكون شكلها؟"

سأل الحفيد الصغير.

-"مثل أم. مثل أم كبيرة.. مصنوعة من شيء دافئ وناعم وصقيل.. تجلس على الأرض وقد شبكت يديها ورفعتهما نحو صدرها"

-"وماذا تفعل بها؟"

سأل الحفيد الكبير.

-"أنام بين ذراعيها .. وتهزني .. تهزني.. تهزني..."

ومسح جفنيه.

(٣) عصا

اقتطع غصناً طويلاً مستقيماً من الشجرة اليابسة ودخل ورشته الصغيرة وراح يشذبه بصبر ليصنع منه عصا يتكئ عليها.

-"لونها كئيب هكذا. سأصبغها بالأحمر"

بعد قليل غير رأيه وراح يصبغها بالأبيض، لكنه غير رأيه من جديد. وأخيراً قال بعزم:

-"سأصبغها بالأخضر. نعم.. الأخضر هو اللون المناسب"

وسمع من الغصن اليابس صوت حسرةٍ مكتومة!

(٤) أين ذهب الناس؟

خرج الى رأس الشارع فرأى موكباً يضج بالنواح واللطم والطبول فعاد الى بيته مثقل الخطى.

خرج ثانية فرأى جموعا تتشابك بالأيدي والهراوات والسكاكين فعاد الى بيته وقد شحب وجهه.

خرج ثالثة فرأى حشدا يهوي بالفؤوس على أشجار الحديقة العامة الصغيرة فعاد الى بيته.. ذاهلا محموماً.

أقفل الباب من الداخل وهو يهز رأسه ويتمتم:

-"عجباً أين ذهب الناس؟!"

(٥) قابض الأرواح -١

أمهله قابض الأرواح خمس دقائق فهرول الى خزانته الفولاذية المتخمة وفتحها بيد مرتعشة فتهاوت حزم النقود على الأرض. جلس يعدها وهو يهذي:

-"ألف.. ألفان.. تسعون ألف.. خمسمائة وسبعون ألف.. ثلاثة ملايين... سبعة ونصف... ثمانون مليون... أربعمائة واثنان وعشرون مليون وخمسمائة ألف و....."

(٦) قابض الأرواح -٢

وعاد قابض الأرواح الى بيت مجاور. كان الرجل المحني الظهر جالساً ينظر الى صورته حين كان شاباً ويده في يد حبيبته.. امرأته التي رحلت منذ سنوات طويلة. برفقٍ وودّ همس له قابض الأرواح:

-"أمامك خمس دقائق"

فقام بهدوء. رتب خصلات شعره. رفع مقصاً من فوق المنضدة. خرج الى الحديقة. انتقى وردة بيضاء. قطعها وراح يزيل الأشواك عنها وهو يترنم ضاحكاً:

-"أنا قادم إليك يا عزيزتي.. أنا قاد..."

(٧) آدم

وحيداً كان يسير.. آدمُ العجوز. يتفقد بستانه دون مبالاة، عندما أبصر شجرة تفاح:

آهٍ يا حواء.. قد غفرت لك كل شيء.. ولكن من لي بساعةٍ واحدة.. أريح فيها رأسي المتعَب.. على صدرك الخافق!

٢٥ -١٠ -٢٠١١

خمس مسرحيات قصار جدا

(١) مونولوج طويل لرجل مخذول اعتادت الكلمات على خيانته

- آه. أنا..... جداً

يا...

متى .....؟

(٢) ديالوج بين رجلين فقدا السمع في الحرب

-أف. لقد مللت من هذه الحياة!

-فعلا. ربيع هذا العام جميل جدا.

-أشعر كأنني ضيف ثقيل على هذه الأرض منذ آلاف السنين. مللت. مللت.

-لو أعطاني الله بضع سنوات أخرى.. بضع سنوات لا غير!

-أشعر بالاختناق.. سأموت إن لم أصرخ!

-صحيح صحيح جدا يا صديقي أنا أيضا بي رغبة عارمة بالغناء.

-أتخيل الان الضجيج المقرف الذي تثيره هذه المدينة الملوثة.

-فعلاً..أكاد أسمع زقزقة العصافير.

-هل تتذكر كل شيء.. قبل الحرب؟

-قبل الحرب.. قبل الحرب..

-آه يا الهي!

-آه يا الهي!

(٣) ديالوج بين رجل مقطوع اليدين وصديقه الحالم

- أتمنى أن أتحول الى طير. (قال الرجل المقطوع اليدين)
- الكي تحلق في السماء؟ (سأله صاحبه الحالم)
- عن أي تحليق تتحدث؟ لا أريد سوى أن أحك ظهري بمنقاري.. (وعض على شفاهه كي لا يصرخ) أحكه حتى أدميه..

(٤) وجه مألوف

مسرحية في ثلاثة أسطر

-وجهك ليس غريبا علي. أين رأيتك من قبل يا ترى، أين التقينا؟

- في مقبرة جماعية؟
- نعم.. على الأرجح. ولكن في عصر أي ملك؟

(٥) ماذا تقصد؟

مسرحية في ستة أسطر

الشخصيات:

المحقق (وهو نفسه حاكم التفتيش والطبيب النفسي ورجل الدين والمكلف بالإعدام)

الشاعر (وهو نفسه المجنون والمتهم والعاشق والفيلسوف)

لا ستار، لا وقت، لا ديكور..

المحقق: ماذا تقصد؟ ما الذي تريد قوله؟

الشاعر: لا أعرف يا سيدي.. لست متأكداً. لا أعرف على وجه التحديد!

المحقق: لم أفهم. قصدك. أريد إجابة واضحة، ما الذي تريد قوله بالضبط؟

الشاعر: لا أعرف! حقاً لا أعرف!

المحقق: لم أفهم أيضاً، ولهذا سأسألك للمرة الثالثة والأخيرة: ماذا تقصد؟ ما الذي تريد قوله؟

الشاعر: لا شيء يا سيدي.. لا شيء على الإطلاق!

١ -٤ -٢٠١٢

احذية

التقيا بالمصادفة.. في مخزن الأحذية الكبير، ربما أكبر مخزن في المدينة، في الدور الخامس من المجمع التجاري العملاق، أكبر مجمع تجاري في البلاد.

كانت رفوف طويلة لا تكاد تنتهي من الأحذية تمتد وتمتد على طول الجدران، وفي وسط القاعات، وفي الممرات والاستدارات والزوايا وفوق محامل الزهور.

-ياااه! ما أكثر الأحذية هنا؟ لم أر في حياتي كل هذا العدد من الأشكال والألوان والأحجام.

-نعم لا بد أنها ثلاثة، أربعة.. بل خمسة آلاف طراز في أقل تقدير.

-نعم، نعم. وربما أكثر من هذا.

-كيف يتسنى للمرء أن يختار الطراز الأفضل؟ كيف يعرف أن طرازاً بعينه هو الأنسب والأفضل؟

-صحيح. إن المرء ليحتاج الى عمر بأكمله ليجرب كل زوج منها ويتأكد من جماله ومتانته ومناسبته وراحة القدمين فيه.

-ولهذا ربما يختار البعض أقربها الى متناول يديه.

-أو أول ما تقع عليه عيناه.

-أو أرخصها.

-أو ربما يلجأ ببساطة الى تقليد الآخرين ومجاراة أذواقهم.

-نعم، نعم. كلامك صوابٌ كله.

-وكلامك ينم عن الحكمة. أنا أحب محادثة الأذكياء.

-وأنا كذلك يا سيد.. آه. لقد نسيت حتى أن أسألك عن اسمك!

-هههه. حقا. وأنا كذلك. إسمي راشانا سابانو.

-تشرفت بمعرفتك. وأنا كاندانا مورانين.

-مورانين؟ يبدو لي أنك من الديانة المورانكانية.

-نعم. أنا مورانكاني. لماذا السؤال؟

-عذرا على التطفل. لكنني سمعت عن دينكم أشياء غريبة.

-أشياء غريبة؟ مثل ماذا؟

-حسناً. بالنسبة الى عاداتكم وتقاليدكم.. أنت تعرف.. أشياء مثل طريقة زواجكم وبناء معابدكم وأداء صلواتكم.. يعني.. بعض الأمور الغريبة التي لا يجد العقل تفسيراً لها.

-كل ما تسمعه ويتناقلونه محض هراء وأكاذيب. ديننا اصح الأديان وأحسنها. بل هو الدين الصحيح الوحيد. وأتحدى

من يدعي غير ذلك!

شعر الأول بالارتباك من هذه اللهجة، لكنه استدرك:

-عفواً. لا أريد إزعاجك. لكنني قرأت مرةً أن في عالمنا أكثر من ٥٠٠٠ دين!

ولم يجب الثاني. بل استدار غاضباً وتوجه الى أحد البائعين وناداه في عصبية لم يستطع كبتها:

-أعطني زوجاً من هذا النوع. نعم، نعم. هذا لا غير. أسود. مقاس ٤٢.

ودفع الثمن وحمل الرزمة ثم خرج مسرعاً، مكفهر الوجه.. دون أن يلتفت الى الوراء.

وشيعه الأول بنظراته ثم هز رأسه في أسف وهو يتمتم:

-خمسة آلاف.. نعم. خمسة آلاف كما قرأت... وربما أكثر!

٥ -١٢ -٢٠١٢

حديث.. في غرفة نوم

كتبت له على الإنترنت:

-زميلتي في العمل بكت كثيرا هذا اليوم وهي تشكو إليَّ ما وصلت اليه العلاقة بينها وبين زوجها من برود وجفاء.

-الحمد لله. لسنا مثلهما.

كتب الرجل الراقد قربها.

-نعم، فنحن نتقابل كثيرا على الفيسبوك.

كتبت المرأة.

-وترسلين لي رسائل على الموبايل لتذكريني بقائمة التسوق اليومي.

-نعم يا حبيبي. ونرسل الى بعضنا البعض بطاقات التهنئة بالمناسبات.

-ونتضاجع مرة كل أسبوع.

-نعم. نعم وكثيراً ما نتبادل "اللايكات". أوه حبيبي. يبدو أن التيار الكهربائي قد انقطع. هل يمكنك القيام بالتحويل الى خط الطوارئ؟

-بالتأكيد يا حبيبتي. أستميحك عذرا. سأقوم بالتحويل. وربما تأخرت قليلا فأنا بحاجة للذهاب الى الحمام.

-أوكي حبيبي.خذ راحتك. أرجوك أن تقوم في طريقك بالإطمئنان على الولدين نيابة عني وتتأكد من تغطيتهما وإغلاق حاسبتيهما. ولا تنس باب الحديقة الخارجي. ربما أخلد الى النوم بضع ساعات. أقدامي تقتلني من الوجع!

-سلامتك يا غالية. حسنا الى اللقاء.. !sign out

-تسلم يا غالي. الى اللقاء.. !sign out

٢٧ -٥ -٢٠١٣

حكاية الذي رجله اطول من لحافه

قال له جده:

-"مدَّ رجليك على قدر غطاك!"

كان صغيراً جداً. ربما في الخامسة من عمره؛ ففهم الأمر بشكل حرفي وأسرع متسلقاً جبل الأغطية والأفرشة والمخدات المكومة فوق المنضدة الخشبية القديمة التي تحتل جداراً كاملاً من الحجرة التي يتحلق فيها الجميع (أبوه وعماه وجده وأخوته الكبار) حول المدفأة النفطية الفستقية اللون ذات اللهب الذي يتلاعب مثل جني أزرق قلق.

جلس هناك، وأخذ يبحث عن غطائه الصوفي الكاكي، ثم مد جسمه الضئيل وغطى رجليه، سحب الغطاء ثم أرجعه ثم مده ثانية، وشعر بالارتباك. لم يعرف كيف ينفذ طلب جده. وتعالت الضحكات في الغرفة، فشعر بالخجل الشديد وأسرع بالانزلاق والاختباء تحت المنضدة المغطاة حتى الأرض بفَرشة من قماش الخام الأسمر الثقيل اعتاد أن يندس وراءها كلما أراد شيئاً من الخلوة في هذا البيت الصغير المزدحم.

وواصل الآخرون حديثهم..

كان قد بدأ بعد انتهاء نشرة الأخبار. وكان، كالمعتاد،

يدور منذ الأزل حول السياسة، الأقرباء والمعارف المعتقلين والمعدومين، السجون وقاعات التعذيب الرهيبة، خطب الرئيس الجديد المضحكة، منع التجوال، آخر المحاولات الانقلابية. كان يحب الجلوس معهم وسماع تلك الكلمات الكبيرة، وعندما داعب عمه الأصغر رأسه وسأله:

- "وأنت أيها السياسي الصغير، ما هي خططك؟"

أجاب مندفعاً:

-"سأقوم بانقلاب!"

وتعالى الضحك فسأله العم من جديد وقد رسم على وجهه ملامح الجد:

- "انقلاب مرة واحدة؟ حسنا، وأين وصلت في ترتيبات انقلابك أيها الزعيم؟"

فأجابه:

-"أولاً سأوزع المنشورات (كان لا يجيد لفظ السين) ثم أهجم بالطائرات على معسكر الرشيد!"

-"ومن ستعدم إذا نجح الانقلاب؟"

-"هل عليَّ أن أعدم؟"

-"طبعا. ما دام هناك انقلاب فهناك اعدام!"

نسي أسماء الساسة والوزراء الذين كانوا يُشتَمون أمامه ليل نهار فأجاب في ارتباك:

-"أنت ..وعمو.. وأبي!"

وانفجروا بالقهقهات، ولطمه أبوه على قفاه:

-"قم لا بارك الله فيك وفي انقلابك وفي أسنانك المكسرة!"

وقال عمه الكبير وهو يقرص أنفه العرقان:

-"أهذه خططك أيها الزعيم القواد؟!"

لكن الجد فتح فمه فسكت الجميع:

-"بلا سياسة ولا أحزاب ولا أكل خره! ابني مد رجليك على قدر غطاك!"

...

-"في المرة القادمة تعلّم أن تمد رجلك على قدر غطاك!"

صاح الاستاذ "عباس الرهيب" بزميله كريم وقد احمر وجهه من الغضب ولوح بالعصا ثانية:

-"افتح يدك الأخرى.. ابن القندرة.. صاير فيلسوف.. تجادلني في تفسير كتاب الله!؟"

فغاص هو في رحلته وأحس بقطرات دافئة تبلل سرواله الداخلي!

...

-"إبني. هذا لمصلحتك. حتى تتعلم أن تمد رجلك على قدر غطاك!"

قال له العريف "شدهان" بلهجة تصالحية بعد أن عاقبه بالتمرغ في وحل معسكر التدريب لأنه تجرأ على مناقشة أوامره.

...

-"مد رجلك على قدر غطاك. ألم تتعظ من مصير زميليك؟!"

قال له المدير مهدداً كي يمنعه من السؤال ثانية عن حسابات الدائرة التي فاحت رائحة فضائحها.

...

-"مد رجلك على قدر غطاك!"

-"مد رجلك على قدر غطاك!"

...

الان، وهو على فراش المرض. وكما يحدث للشيوخ الذين تقفز أمامهم ذكريات منسية غابرة، تذكر حديث الانقلاب، فارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة وقال لابنته الساهرة على راحته:

-"انظري.. هل طالت ارجلي؟"

لم تفهم البنت مقصده ففسر لها:

-"يقولون ان الانسان متى مات طالت رجلاه"

فأسرعت برسم دائرة تعويذة حول رأسه:

-"اسم الله عليك يا به.. من عمري على عمرك!"

-"ارفعي هذا اللحاف الكريه! اريد لحافا اخر"

-"هل يضايقك ملمسه؟ انه جديد. أهو ثقيل؟"

-"لا لا . فقط أريد إبداله. اسمعي: اجلبي لي لحاف حمودي (ابنها الذي في السابعة)"

استغربت المرأة من طلبه لكنها أذعنت له. بعد دقيقتين كانت تحاول أن توفق بين الغطاء الصغير وقامة الرجل الطويلة. أرادت أن تسحبه ليغطي القدمين الضامرتين الباردتين فنهرها العجوز:

-"لا.. أتركي اللحاف وشأنه! دعي قدمي مكشوفتين (ثم قال كمن يحدث نفسه) أريد أن أمد أرجلي الى أقصاها.. مرة واحدة قبل أن أموت (والتفت اليها) ونادي لي "حمودي".. أريد أن أراه"

كان الصغير قد مُنع من دخول الغرفة طوال الأيام الماضية فاندفع الى جده فرحاً وألقى بنفسه فوق صدره:

-"جدي.. أحبك!"

-"وأنا أيضاً أحبك أيها الشيطان الصغير. ولكن حذار. لا تقفز هكذا فوقي وإلا كسرت أضلاعي يا ابن الكلب! (وقبل عينيه وتشممه طويلاً وأشرق وجهه) اسمع يا ولد: هل ترضى بأن تعطيني لحافك. سأستعيره منك بضعة أيام،

ربما بضع ساعات.. ماذا تقول؟ هل توافق؟"

-"نعم، نعم يا جدي.. وسأعطيك ألعابي كلها إن أردت"

-"ربما أستعير منك بعضها إذا قمتُ مرة أخرى. لكنني أريد أن أقول لك شيئاً، شيئاً مهما يا حمودي: إياك أن تثني رجليك أو تتمنى أن يكونا أقصر من لحافك. العيب ليس في رجليك دائماً. العيب أحياناً في الغطاء. هل تفهمني أيها المشاغب الصغير؟! وإياك أن تسمع كلام أمك وأبيك إذا أمراك أن تمد رجليك على قدر غطاك. حتى لو خوفاك بالبرد. إنهما رعديدان مثل الآخرين. أما أنت ف"سبع" أليس كذلك؟!"

-"نعم يا جدي. أنا "ثبع" أنا بطل الأبطال!"

-"حيّاك يا بطلي!"

وقرصه في أنفه العرقان. وابتسم ابتسامة رضا عميق. وأغمض عينيه. وتمتع بالهواء البارد الذي يغسل قدميه!

٤ -٥ -٢٠١١

حكاية الرجل نصف العاقل
الذي يكلم نفسه في الحديقة

كان الرجل نصف العاقل الجالس في الحديقة يفكر مع نفسه:

-"النمل الذي نسحقه بأقدامنا، هكذا، لإزجاء الوقت. والفراشات التي يعذبها الصغار ويقتلعون أجنحتها قبل قتلها لأنها "حلوة.. حلوة". والفأرة الأم التي تصرخ وهي تحاول دون جدوى الخروج من الصمغ الذي علِقتْ فيه. والعصفورة اليافعة التي تذوي وتشيخ في القفص الخانق. والسمكة التي نُغرِقها في الهواء ونشق جوفها ونفترسها. أليست كائنات حية؟!"

-"نعم (يجيب نفسه بصوت مسموع) إنها لكذلك!"

-"أي إن لها أرواحاً مثلنا؟" (يسأل الهواء اللافح الثقيل قبالته)

-"نعم، بالتأكيد" (يضطر للإقرار)

-"فأين تذهب أرواحهم حين يموتون؟ وهل فيهم صالحون يذهبون الى الجنة وطالحون يذهبون الى الجحيم؟ وهل ينتظرون يوماً ينشرون فيه؟ وهل فيهم، مثلنا، شهداء دون

بيوتهم وأزواجهم وصغارهم؟ أم أن هذه امتيازات محصورة للكائنات الأكثر رُقيا مثلنا؟"

- "رُقيّا!؟.. ظظظظظظ!" (يعفط بفمه بصوت مرتفع ينبّه الكلب الراقد في الحفرة الرطبة تحت شجيرة الدفلى)

- "تأدب يا هذا حين تتحدث معي (يؤنب نفسه) أنا لا أسأل جزافاً"

- "عفوا. أنا فعلاً أحاول أن أفعل ذلك" (ينكمش على نفسه وهو يعتذر)

...

-"هل...؟ لماذا... ؟ كيف...؟"

كان سيل الأسئلة يعود ليتدفق من لسانه بسرعة عجيبة وهو ينهض ويجلس أو يتوسل أو يضرب الهواء أو يقوم ليتبول خلف شجيرة الدفلى.

...

يقولون أن السيارة المفخخة الأخيرة انفجرت على مبعدة زقاقين من مصطبته، لكن إرادة ما ربما شاءت أن تخرسه للأبد فحولت مسار قطعة مرهفة من حديد سقفها نحو ذلك المكان.

-"خطية" (قال بعض الجيران)

-"كان نصف مجنون" (قال بائع السجائر)

-"كان يسأل عن أشياءَ إن تُبدَ تسؤ" (قال خطيب الجامع)

-"هذه نتيجة الخروج من البيت في هذه الأيام" (قال واحد من الذين سمعوا الخبر وهو يحكم إغلاق الباب)

-"ماذا عن الكلب الذي قتل معه، أين سيذهب؟" (تساءل القادم الجديد الذي صار يجلس في المصطبة المقابلة)

٢٥ -٨ -٢٠١٣

حكاية عراقية للنوم

كان يا ما كان، في قديم الزمان. كان هناك ولد طيب ومحبوب ومطيع. ما شاء الله، طول وجمال وأدب!

وكان لبيت الجيران.. بيت الجيران المقابل فتاة رائعة الحسن والكمال والأخلاق. تقول للبدر غب وأنا في مكانك!

منذ الصغر أحب أحدهما الآخر، ولم يكن أهلهما يعارضان ذلك فقد..

وفي يوم من الأيام قال الولد:

-"لقد حان الوقت لأتقدم لخطبة ابنة الجيران"

هلهلت أمه وفرحت أيما فرح وقال الأب وهو يتطلع لابنه:

-"ما أسرع ما كبرت يا ولد! مو هذا الخميس. الخميس الذي بعده سنزورهم"

...

ثم جاءت الحرب.. جاءت ليلة السبت.. قبل الخميس بستة أيام.

...

وبقيت البنت الحلوة تسقي الشجرة كل يوم وتتحدث اليها.

وفي يوم من الأيام توقفت سيارة أجرة صغيرة قرب بيت

حبيبها ، تحمل فوق سقفها شيئاً ملفوفاً بعلم!

وارتفع صوت عويل وصراخ..

...

وتلبثت الحرب.. لم تكن تستعجل الرحيل!

...

ورفضت الفتاة كل من تقدم لخطبتها ، لكنها في النهاية ، وبعد أن تجاوزت الثلاثين من عمرها استسلمت لإلحاح أهلها ومعارفها ، وأولهم أم الفتى. اقترنت برجل طيب من أقربائها وأنجبت منه ولداً لم يعترض زوجها على تسميته باسم ابن الجيران القديم.

كبر الولد وصار ما شاء الله: طول وجمال وأدب.

...

وعادت الحرب

...

وظلت السيدة العجوز تنتظر في الغروب.. تحت تلك الشجرة..

١ -١١ -٢٠١٣

يوم قتل الخليفة

-"لا تلمسوا شيئا!

لا تعبثوا بمكان الواقعة!

دعوا كل شيء على حاله ريثما يأتي المحققون!"

كان حارس المسرح يصيح في يأسٍ متزايد. غير أن الناس كانوا يدخلون ويخرجون غير عابئين بنداءاته..

كانوا يدخلون وحداناً وزرافات.. متهللين .. متغيري الوجوه.. أفواههم نصف مفتوحة..

وكانوا يخرجون وحداناً وزرافات .. لاهثين .. يجرجرون كل شيء: الكراسي، إطارات الصور، مناشف الحمامات، وبلاط الأرض...

وعندما خرج آخر صبي وهو يحمل زوجا من الجوارب الثخينة الملطخة بالدم انتزعه من قدمي الممثل القتيل انتبه الى وجود الرجل الذي كان قد انهار جالسا على التراب وهو يتمتم:

-"أولاد الخرا .. لا تلمسوا شيئا

لا تمسحوا ذاكرتكم

من سيذكركم، إذا أخذتم كل شيء، بما حدث؟

ومن سيمنع الخليفة الجديد.. من إعادة فصول المسرحية؟"

٢٨ -١١ -٢٠١٢

متحف.. للمستقبل الباهر

منذ أن امتدحه مدرس اللغة العربية في الصف الأول المتوسط على قطعة الإنشاء تلك (نعم، تلك المؤطرة المعلقة في حائط غرفة الضيوف) وأخبره أنه يتوقع له مستقبلاً باهراً في مجال الأدب.. منذ تلك الأيام الغابرة تملكه حرص شديد على الاحتفاظ بكل متعلقاته: قصاصات الورق التي خط عليها بعض أنصاف الأبيات الشعرية، ومسودة المقالة التي كان ينوي كتابتها ومنحها عنواناً مدوياً (تأملات فلسفية في الحب والحياة) والقصة القصيرة الوحيدة التي افترشت زاوية من إحدى النشرات الجامعية، وبروفات توقيعه، وكل ثيابه وتصاويره وأدواته العاطلة وأحذيته ومجلاته وفواتيره.. بل إنه صار يحتفظ بمناديله المستعملة وشعر رأسه المحلوق!

كل ذلك بترتيب وتوثيق لا مثيل لهما في الدقة، وفي دواليب وصناديق وألبومات ملأت -حتى السقف -الغرفة الصغيرة التي يحرص على ألا يدخلها أحد، خصوصاً أحفاده الشياطين.

كل ذلك لأجل المتحف الذي سيقام لذكراه.. بعد أن تتحقق نبوءة مدرسه القديم!

٢٩ -٥ -٢٠١٢

هي.. وهي

-"هل من الممكن أن تتركنا لوحدنا قليلاً.. أرجوك؟"

قالت السيدة الساهمة الجالسة قبالة مرآة منضدة الزينة دون أن تلتفت لزوجها الذي أحست بدخوله الغرفة.

-"لكنك لوحدك يا عزيزتي.. ليس في الغرفة غيرك!"

-"أعرف هذا يا عزيزي.. أرجوك!"

قالت في تضرع.

انسحب الرجل في هدوء مذعنا لرجائها وهو يتمتم:

-"ما أغرب أطوار النساء!"

انتظرت المرأة حتى خرج وأغلق الباب ثم التفتت الى مرآتها وقالت وكأنها تواصل معها حديثا انقطع لبرهةٍ :

-"ما أغرب الرجال! متى يفهمون أسرار أحزاننا؟"

٢٨ -١١ -٢٠١٢

وجهة نظر

جلس وقد ارتسمت على وجهه علامات التقزز والغضب ليحدثنا كيف اختفى الصبي تحت سطح الماء.

سألتُه بعفوية:

-"ولماذا لم تقفز وتنتشله؟"

-"أنتشلُ من؟"

-"الفتى الذي كان يغرق؟"

التفت الى بقية الجالسين قائلا:

- "انظروا الى هذا المخدوع الساذج. يريد مني أن أقفز الى النهر من أجل صبي غبي أقحم نفسه في ورطة أغبى بينما الوطن كله يرزح تحت الاحتلال!"

- "لكنني أعرف أنك رياضي ماهر، وسباح شهير. أليست هذه شهامة الرياضيين؟"

- "وهل هناك رياضة مع الاحتلال يا أخي؟ تتحدثون عن الرياضة ولا تتحدثون عن الاحتلال. من يمارس فعلا كهذا في ظل هذه الظروف يبقى لطخة عار حتى نهاية العمر. أليس كذلك؟ وإلا فهل ثمة وجهات نظر في الاحتلال؟"

٨ -٨ -٢٠١٣

يوسف الذي بيته في الصدرية

لست فاتن نساء كما يوسف الأول، فأسناني نافرة قليلاً، وعندي مع الأسف صلعة صغيرة. لكنني، على العكس منه، لم أفكر حتى بأن أهم بها، أعني جارتي الأرملة الجميلة العمياء.

أما الأحلام فلستُ أقل براعة منه في تفسيرها، بل يمكنني تفسيرها كلّها بجملة واحدة، جملة وحيدة: الفناء مصير البشر!

أخوتي طيبون؛ لم يفكر أحد منهم بالتخلص مني أو إلقائي في البئر، هم لا يملكون سبباً يدفعهم لذلك؛ فأبي لم يترك ميراثاً يعتد به، ولم يخطر بباله أن يفضل ولدا بعينه. علاوة على ذلك: لا يوجد في هذا الجانب من المدينة أي جبٍّ قريب، على حد علمي!

حين أرسل الفرعون في طلبي لم أكن في السجن. كنتُ في السوق، أدفع عربة الخضار.

كنت صريحا معه، قلت له:

-"بما إن رؤياك يا مولاي لم تحدد بالضبط عدد السنبلات والأبقار، فمن الواضح أن أمامنا، كما خلفنا،

سنينا عجافا لا عد لها. فلا تفعل شيئاً.. أجلس وانتظر الخراب!"

غضب مني الفرعون بالطبع، وأمر بإعدامي. ثم خففوا الحكم الى المؤبد في عفو ملكي بمناسبة عيد ميلاده. وبقيت في السجن حتى جاء الغزاة وكسروا بابه.

مازالت موهبتي في تفسير الأحلام على حالها. ومازلت عفيفاً طاهر اليد والطوية. ربما نما لي كرش صغير وسقط واحد أو اثنان من أسناني، لكنني ما زلت وسيما بعض الشيء. فلماذا لم يكرمني الله كما فعل مع يوسف الأول؟ ولماذا لم يجعلني على الأقل حاكما ولو لبضعة أعوام (لا أريد الذهاب الى مصر، تكفيني مدينة صغيرة نائية) ريثما أجمع قليلا من المال لأرسل أمي الى الحج، وأشتري سيارة بيك أب مستعملة، وأتزوج (على سنة الله ورسوله) جارتي العمياء التي أحلم بها كل ليلة، وأركّب لابن أختي المسكين قدما صناعية بدلا من تلك التي فقدها في الانفجار؟

٢٧ -٨- ٢٠١٣

حكاية الصبي المليح
الذي يحب كرة القدم

(١)

كان هناك صبي مليح. ذو شعرٍ جعد مائل الى الاصفرار، وجسد ضامرٍ نحيل.. ضامر لكن قوي.

من بين الكثير من الأمور التي يهواها مَن في عمره كان يحب كرة القدم ويعشقها أكثر من أي شيء آخر. لذلك انخرط منذ طفولته المبكرة في اللعب مع أصدقائه الآخرين، في الملعب الترابي القريب من الشارع العام، ذلك الذي يشق مدينته الصغيرة.

كم مرة عاد الى البيت بقدمٍ مخلوعة ليتلقى توبيخ أمه وكَمّادة العجين والدهن السحرية الساخنة!

كم مرة دخلت عليهم عصابات من الصبية الأشقياء من محلات أخرى ليعتدوا عليهم ويخربوا ملعبهم لكنه يقف مع أصحابه.. يتصدون لهم ويدافعون عن ساحتهم الأثيرة!

كم مرة، بعد انتهاء تلك المعارك الطفولية، مسحوا أنوفهم النازفة وشفاههم المتورمة وهم يضحكون في مرح ويتذكرون

تفاصيل المعركة ويسخرون من رفاقهم الذين جبنوا وفروا منها!

وكم مرة، في تلك الأيام بالذات، كان يتعمد المرور من أمام شباك بنت الجيران ذات الضفيرة الشقراء ليتباهى برجولته وجراحه أمامها!

(٢)

حين ودّع الساحةَ لم يكن ذلك الصبي الضامر النحيل.

انكفأ الى بيته أياما وأسابيع. كانت أمه تشعر بأن "الولد" ليس على ما يرام. وحين تسأله:

-"لماذا كففت عن الخروج للعب مع أصحابك؟"

كان يكتفي بالصمت أو بواحد من الأعذار الكثيرة: "لم أعد أحب هذه اللعبة السخيفة".. "لقد كبرت على اللعب".. "أنا مريض" .. "وأين هم أولاد الكلب الذين كنت ألعب معهم؟ لقد تفرقوا وهجروا الملعب!"

وحين تخرج من الغرفة كان يستغرق في ذهول طويل.

(٣)

سنوات الصبا تمر سريعاً..

صارت الكرة ذكرى قديمة مثل شريط سينمائي رمادي.

قيل إنه غضب من الطريقة الفاشلة في إدارة الفريق، تلك التي سببت لهم خسارات متتالية.

قيل إنه شعر بالغبن حين اختاروا لاعبا لا يدانيه في المهارة ليكون كابتن الفريق.

قيل إن رئيس الفريق طرده واتهمه بأنه مشاغب غير منضبط.

قيل إن واحدا من الصبية الأشرار من فريق المحلة الأخرى قد انفرد به ذات ظهيرة وأخرج له خنجراً مرهفا وقال له:

-"أنظر سأغرس هذا الخنجر في بطنك إن لم تلتحق بفريقنا أو تترك ذلك الفريق على الأقل"

قيل إنه أصيب بالتهاب في الكبد جعله يتعب وتتقطع أنفاسه كلما جرى.

وقال آخرون بل إن الفريق كله قد ساءت أحواله وتفرق لاعبوه ولم يعد ذلك الفريق المتماسك القوي الذي يحسبون له ألف حساب!

(٤)

وتمر الأعوام.. ثقالاً تمر، مثل سلحفاة ضجرة.

وفي ذات يوم تناهى الى سمعه ضجيج خاله مألوفاً: كانوا ينظفون الساحة التي تحولت الى مستودعٍ للأنقاض. كان الفريق القديم يعود الى ملعبه!

ضحك كثيراً عندما طلب منه أحد أصدقائه أن يعاود اللعب معهم، لكنه (ودون أن يقترب كثيراً) صار يذهب لمشاهدتهم خلسة.

كانوا الآن فريقا غريبا يرغمك منظرهم على الابتسام. فيهم أصدقاؤه القدماء وقد نمت لهم كروش صغيرة أو صلعات مستديرة، ومعهم لاعبون جدد من صبية المحلة: قصار، طوال، سمان، ضامرون، شقر، سمر.. أولادهم وأولاد أخوتهم وأخواتهم. وكانت ثيابهم هي الأخرى بقياساتها وألوانها المتنافرة تبعث على الضحك.

لكنهم، على أية حال، كانوا يلعبون، يغالبون شيخوختهم وأمراضهم المزمنة ويتحملون عبث الصغار وألاعيبهم الشيطانية، يشعرون بأنهم ما زالوا صالحين للعيش واللعب الأخرق والضحك.. والعراك!

وصار يخرج كل يوم ويدنو من الساحة أكثر فأكثر، لكنه لا يضع قدمه فيها أبداً، بل يظل يدور على حدودها أو

يقتعد أحد الأحجار ليتفرج على فريقه القديم.

كان أحيانا يشتم اللاعبين أو يغلي بالغضب فيرميهم بالحصى.

أحيانا يصرخ:

- "أي فريق فاشل هذا! متى تتعلمون؟ كم كنت غبيا لأنني رضيت أن ألعب معكم ذات يوم!"

أحياناً يصيح:

- "هذا رئيس الفريق مالكم قواد. لازم تغيروه!"

أحيانا يجرفه الحماس ولا يتمالك نفسه من إصدار التوجيهات:

- "ولك زمال رقم سبعة إرفع لمنطقة الجزاء!"

أحياناً يضبط نفسه وهو يقفز فرحاً بتسجيل هدف لـ"فريقه" لكنه في أحيان أخرى يضحك بشماتةٍ حين يسجل الفريق المقابل هدفاً عليه.

أحيانا يسخر حين يسقط أحد زملائه القدامى أرضاً نتيجة خشونة متعمدة من خصم فظ، فينظر اليه وهو يتلوى من الألم أو يمسك أنفه النازف ثم يصيح:

- "حيل بيكم كله صوجكم تستاهلون!"

لكنه يغالب رغبة عارمة في الذهاب اليه وتضميده.

أحيانا يستقبل لاعباً مطرودا أو خارجا من الفريق ويقول له

-"ما قلت لك هذوله مو أوادم. ليش تلعب وياهم؟"

وبين الفينة والأخرى يلتفت الى من حوله من جمهور ويقول لهم

-"شوفوا. هذولة كلهم أولاد خرا.. كلهم لاعبون فاشلون.. أني علمتهم اللعب.. أخوات القحاب هؤلاء!"

وحين يأتيه تصديق على كلامه من مشجعين لفريق منافس أو يناوله أحدهم حصاةً ليرميهم بها يفرح قليلا لكن يده تتراخى ويشعر في داخله بانقباض غريب.

سُمعتُه القديمة كلاعب ماهر دفعت بالعديد من الفرق الى طلب تدريبها أو اللعب معها ولو لدقائق. لكنه كان يرفض بعناد أن يلعب مع فرق أخرى غير فريقه الأول فيقول لهم:

-"اتركوني لحالي. لقد اعتزلت هذه اللعبة السخيفة. هذه لعبة زعاطيط!"

غير أنه، في داخله، يتحرق شوقاً الى اللعب مع أصدقائه القدامى، ويكاد يبكي حنينا الى تلك الأيام الجميلة.. حين كان صبياً مليحاً.. مقداماً..

حين كان لاعباً لا يبارى.. في فريق محلته الجميل!

٩ -١٠ -٢٠١٣

تقرير هنوي
عن حالة كوكبنا البعيد

اعتاد أباطرة المجرة على تلقي تقارير نصف يومية عن حال الكوكب -العاصمة وسكانه، وتقارير نصف أسبوعية عن شعوب الكواكب المأهولة الواقعة ضمن مجموعتهم الشمسية، وتقارير شهرية عن....

أما الكواكب البعيدة جدا عن مركز الإمبراطورية مثل الكوكب الأزرق الصغير(٠٠-٣٣ mx) فقد كانت التقارير عنها تقدم الى الإمبراطور الحاكم في فترات متباعدة جدا جداً: كل مائة عام!

الإمبراطور الحالي كان شديد الشغف بالتفاصيل ويقرأ التقارير التي قدمت له أو لأسلافه قبل أن يستمع الى الجديد منها.

-"هذا الكوكب يسميه سكانه بالأرض، أليس كذلك؟"

-"نعم يا سيدي"

-"وسكانه يسمون البشر؟"

-"نعم يا سيدي. ذاكرتك ممتازة!"

-"إنه يذكرني بتاريخنا الموغل في القدم. أعرف أنهم في هذا الجزء (وأشار الى مكان في الخريطة) كانوا قد حققوا شيئاً مما حققناه من تقدم عقلي قبل نصف مليون عام، رغم أنهم كانوا موشكين على إشعال حرب داخلية كبيرة فيما بينهم"

-نعم يا سيدي. كانت بمقاييسهم حربا هائلة لذلك أطلقوا عليها اسم الحرب الكونية رغم أنها لم تتخط كوكبهم القزم!"

-"مساكين. لقد خيبوا ظني"

-"لكنهم توقفوا عن هذه العادة، جزئيا على الأقل، وحققوا في المائة سنة الأخيرة، هنا، وهنا، وهنا (وأشار الى مساحات بعينها) المزيد مما أشرت اليه من تقدم"

-"حسناً فعلوا. واظبوا على مراقبتهم عن كثب دون أن تتدخلوا... وماذا عن هذه المنطقة؟ (وأشار الى بقعة غامقة تتوسط ثلاث كتل كبيرة) ماذا فعل أهلها خلال القرن المنصرم؟"

-"هذه يا مولاي؟ (وضيق عينه الوحيدة وابتسم في استخفاف ورثاء) لا شيء مهم. التقارير عنها لا تكاد تتغير منذ أكثر من عشرة قرون: قوم يعشقون الجعجعة. في كل مرة يحاولون أن يفعلوا شيئا جديداً لكنهم يخفقون ويعودون كما كانوا!"

٨ -١٢- ٢٠١٣-

ألمائيل

في بريّةِ بابلَ التي تحوّلَ عنها الفراتُ والجنائنُ والطيورُ وبهجةُ المهرجاناتِ كانا يسيرانِ معاً. أبصراهُ من بعيد. كان جالساً بين يدي ثلمةٍ في السور القديم، يحدِّثُ نفسَه ويغني ويخطُّ بِعَصاهُ على الرملِ كلماتٍ ويمحوها.

قال الأولُ، وكان رحّالةً مغرما بزيارةِ المدائنِ التي تلفظُ أنفاسَها:

-"أُنظرْ يا صاحبي لهذا الرجلِ الغريبِ الأطوار. هل تعرفه؟"

-"ومن في بابلَ كلها لا يعرفُ ألَمائيلَ؟!

أنه نبيٌّ غير رأيه في آخرِ لحظةٍ

ورأى أن الأمرَ برمّتهِ عقيمٌ

ومملٌّ

ولا يستحقُّ المجازفةَ والعناءَ

فقرر أن يغني لنفسه

ولبضعةِ أنفارٍ من صحابتهِ المقربينَ

تحت سقفٍ آمن"

-"وماذا يفعل ها هنا، وحدَهُ في العراء؟"

-"أصحابهُ ماتوا

أو لاذوا بالفرار

أو وجدوا مأوىً

تحت سقف المعبد!"

-"وما هذا الذي يخطّه على الرمال؟"

-"تلكَ آياتُه التي لا يعبأُ بها أحدٌ؟"

-"ولماذا يا صديق؟"

-"ذلك لأن بابلَ كلها يا صاحبي، ما عاد فيها من يعرفُ القراءة!"

-"ألأنَّ الفراتَ هجرها؟"

-"بل إن الفراتَ هجرها لأجل ذاك!"

١١ -١٢- ٢٠١٥-

حوار في ساحة التحرير

(في ذكرى مشانق ساحة التحرير -بغداد -أواخر الستينات وأوائل السبعينات)

المشنوق الأول: مرحبا. شلونك؟

المشنوق الثاني: الحمد لله، لا باس.. وأنت؟

المشنوق الأول: منيح والحمد لله. ما اسمك؟

المشنوق الثاني: لا أتذكر بالضبط، لكن من المؤكد أنني كنت أحمل اسماً حتى صباح اليوم. وأنت.. ما اسمك؟

المشنوق الأول: اسمي مكتوب في هذه الورقة الملصقة على صدري، لكنني نسيته. عذراً، لا أستطيع إحناء رأسي كي أقرأه.

المشنوق الثاني: إذن أنت مثلي معلق من رقبتك؟

المشنوق الأول: أوه.. أأنت أيضا معلق هنا؟ يا للمصادفة!

المشنوق الثاني: نعم، يا للمصادفة!

المشنوق الأول: أعذرني، لم أستطع رؤيتك. حسبتك واحداً من المارة.

المشنوق الثاني: ولكن لماذا أنت معلق؟ أعني لماذا نحن معلقان هنا؟

المشنوق الأول: لست متأكداً حتى الآن. حين اقتادوني من البيت صفعني أحدهم وقال لي إنني خائن وعميل. وأنت؟

المشنوق الثاني: أتذكر أنهم أخذوني من دكان ابن خالتي في السوق الكبير. هناك في الناصرية. أنا سمعتهم وهم ينادونني بالخائن والمتواطئ. بالمناسبة هل تعرف معنى الكلمة الأخيرة؟

...

المشنوق الأول: أتدري، الحديقة جميلة هنا.

المشنوق الثاني: نعم، والصباح جميل أيضاً.

المشنوق الأول: أتدري، أنا كل صباح أتسكع قليلا هنا قبل أن أصعد الى شقتي... هناك.. أنظر الى تلك العمارة.. يمكنك رؤيتها من هنا دون أن تدير رأسك.. عيادتي هناك.. في الطابق الثالث.

المشنوق الثاني: آها ! أنت إذن طبيب!

المشنوق الأول: نعم. طبيب عظام ومفاصل.

المشنوق الثاني: ما هذه المصادفات الغريبة! لقد قضيت

السنتين الماضيتين في مراجعة أطباء المفاصل. آخر طبيب قال لي إنني بحاجة الى الذهاب الى العاصمة من أجل شيء اسمه سحب الفقرات، لكنني خفت. على كل حال لن أحتاج الى ذلك الآن، رغم وجودي في العاصمة. أليس كذلك؟

المشنوق الأول: كلا بالتأكيد هههههه.

المشنوق الثاني: أنت تضحك.

المشنوق الأول: نعم. وأنت أيضا.

...

المشنوق الثاني: تدري؟ بدأت أشعر بالملل. منذ الفجر ونحن معلقان هنا. والناس لا يكفون عن التوافد للتفرج علينا.

المشنوق الأول: - نعم. وكأنها أول مرة يشاهدون فيها رجالا معلقين.

المشنوق الثاني: ما يزعجني هو هؤلاء الصبية الذين يتحسسون أقدامي. ويهزونني مثل دمية.

المشنوق الأول: لا تتزعج. إنهم مجرد صبية صغار. ما آلمني حقا هو تلك السيدة العجوز التي وقفت تبكي أمامي بصمت. يخيل لي أنني رأيتها

من قبل، ولكن أين.. أين؟

...

المشنوق الثاني: أقول، متى ينزلونا من هنا؟

المشنوق الأول: وليش الاستعجال؟ أول وتالي يخلونا بحفرة ويهيلون علينا التراب!

المشنوق الثاني: خطرت لي فكرة. شنو رأيك نخدعهم ونشرد من هنا؟

المشنوق الأول: نشرد؟

المشنوق الثاني: إي. نغافلهم وننهزم بعد حلول الظلام.

المشنوق الأول: والله فكرة مليحة. ليش لا. ما خسرانين شي.

المشنوق الثاني: أريد اتفرج على بغداد. يقولون بغداد حلوة بالليل.

المشنوق الأول: صحيح. راح أفرجك على بغداد دربونة دربونة.

المشنوق الثاني: وتوديني لأبو النواس؟

المشنوق الأول: وأوديك لأبو نواس. وبعدين....

المشنوق الثاني: وبعدين؟

المشنوق الأول: نروح للناصرية. وتشوفني الهور.. أريد أقشع الهور..

المشنوق الثاني: وأشوفَك الهور. وبعدين..

المشنوق الأول: وبعدين؟

المشنوق الثاني: وبعدين نروح.

المشنوق الأول: نروح وما نوقف..

المشنوق الثاني: ما نوقف.. لآخر الزمان.

المشنوق الأول: إي. لمّا نشوف اللّه.

المشنوق الثاني: إي ونخلي عينّا بعينه.

المشنوق الأول: ونحكيله كل شي.

المشنوق الثاني: -إي نحكي كل شي.. كل شي....

سبع مدن.. سبعة صواريخ

أرجوكم صدقوني. هل عرفتم عني أنني كذبت أو بالغتُ في رواية شيء من قبل؟ ولست مخبولا طبعا. لا أظن أن أحدكم يمكن أن يشكك في قواي العقلية أو يتهمني بتعاطي تلك الأمور التي يتحدثون عنها.

كل ما سأرويه لكم حدث لي أنا شخصياً، رأيته بعيني التي سيأكلها الدود وسمعته بأذني التي تسمع دبيب النمل.

حدث هذا قبل خمسة أيام، يوم الثلاثاء الماضي بالتحديد، قبيل الفجر بساعة أو ساعتين. كثيرا ما أستيقظ في مثل هذه الأوقات -كما تعرفون -لأتبول أو أشرب قدحا من الماء قبل أن أغط ثانية في النوم. رأيته هناك، جالساً بهدوء على الأريكة المواجهة للتلفزيون المطفأ. حاولت في البداية أن أقنع نفسي بأنني أحلم، لكن واقع الحال أكد لي عكس ذلك ولهذا تملكني خوف هائل خارج عن كل وصف؛ وأظن أن هذا أمر طبيعي يحدث لكل من يسوقه حظه –هل أقول العاثر - لمقابلة كائن خارق (قادم من كوكب بعيد أو من بعد فيزياوي أو روحي لا يمكن التأكد منه).

ها؟ هل بدأتم بالضحك؟ أنا أعذركم طبعاً ولكن ماذا

ستقولون إذا سمعتم بقية الحكاية؟

لن أشغلكم بشكله أو طريقة كلامه أو مشيته أو ... الخ. فهذا كله سأتركه لمخيلتكم. سأدخل إذن في صلب الموضوع كما فعل هو معي:

كنت أفكر بما يمكن أن أفعل. هل أهجم عليه؟ هل أصرخ طالبا النجدة؟ هل أقفز من الشباك؟ لكنه كما يبدو كان يقرأ أفكاري فطلب مني أن أهدأ (كان لطيفا في الحق وربما ساحرا أيضا فسكن خوفي على الفور) عرفني بنفسه وقال إنه موفد من "هناك" وأفهمني بأنه قادمٌ في مهمة محددة وهي إقناعي -وإرغامي إن لزم الأمر، وهو أمر لا يريد أن يضطر اليه -على اختيار سبع مدن أرضية لتكون هدفاً لسلاحهم المدمر الجديد!

-"ماذا؟؟؟ سلاح مدمر؟"

-"وفتاك الى درجة لا يمكن لعقلكم القاصر أن يدركها"

رفضت طبعاً واستهجنت بشكل لا يقبل الشك. وقبل ذلك طلبت منه أن يكرر طلبه بأوضح العبارات وسألته بإلحاح شديد أن يتأكد مما يقول.

-"سبع مدن. سبعة مواطن للشرور والكراهية والغباء تختارها أنت. نجرب عليها سلاحنا الجديد. لا تسئ فهمي،

فنحن في العادة أناس مسالمون، لكن الاحتياط واجب. نحن، أعني في كوكبنا، لدينا القدرة على توقع ما يحدث في المستقبل وإن بشكل غامض. وأنتم، أعني كوكبكم، تشكلون خطراً على الآخرين ومنهم مجموعتنا s٢٢f٣c إن كنت قد سمعتَ بها"

-"نعم بالتأكيد (كانت كذبة مفضوحة بالطبع لكنني عدت الى السؤال) ولكن ماذا سيحدث لهذه المدن؟"

-"أعتقد بأنها ستباد تماماً.. تختفي عن الوجود"

-"وماذا ستستفيدون من إبادة هذه المدن؟"

-"هذا أمر لا يمكنكم إدراكه. ولكن كان من الأجدر أن تسأل عما ستستفيدونه أنتم"

-"نحن؟ هل يمكن لعاقل أن يفكر بالاستفادة من عمل سادي كهذا؟"

-"ذلك يعتمد عليكم! فكر مليا واختر سبعا من المدن التي تظنها الأكثر خطراً على مستقبل الحياة في كوكبكم وفي بقية الكواكب المأهولة"

-"لكنكم ستدمرون مدنا بأكملها"

-"مدنا كبرى رجاءً" (صحح لي)

-"ومدناً كبرى أيضاً! بكل ما فيها ومن فيها: الصغار والكبار، الأبرياء والمجرمون. إنه ببساطة أمر غير أخلاقي،

وحشي.. جنوني.."

-"ولم لا؟ كتبكم المقدسة تتحدث عن كثير من تلك الحالات"

-"هذا بحث آخر، تلك كانت مشيئة الله!"

-"أن يبيد مدنا أو قرى بأكملها؟"

-"نعم، تلك إرادته التي لا يجوز مناقشتها رغم أنه – سبحانه -يملك دون ريب أسبابه ليفعل بها ذلك"

-"مثلا؟"

-"مثلا: أن تعصيه، أو تكذب بأحد أنبيائه، أو تمتلئ بالجور أو الفسق أو الطغيان أو..."

-"آها، لم نختلف إذن! فهذا ما نريده بالضبط: أن تختار لنا المدن السبع التي ملئت بالأمور الأخيرة التي ذكرتها، والتي تنشر الخراب والتطرف والأحقاد في كوكبكم"

(لم أكن وأنا أتحدث اليه في وضع يسمح لي بالتفكير، مجرد التفكير في تنفيذ طلبه السخيف هذا. لكنني كنت أجادله، أجادله فقط)

-"ولكن لماذا اخترتموني أنا بالذات"

-"لست وحدك. لقد قدمنا هذا الطلب الى عدد كبير من الأشخاص المختارين في كوكبكم. سنجمع النتائج ونحللها ثم نتخذ القرار. شيء مثل الاستفتاءات التي تجرونها بين الفينة

والأخرى. أما لماذا اخترناك أنت بالذات فلا يمكن أن أعطيك سبباً محدداً. ربما لأنك شخص راجح العقل وقارئ جيد للتاريخ.. وغير متزوج! كما إننا قرأنا بعضاً مما كتبته في الصحف"

-"وماذا إذا رفضت؟"

-"لا مشكلة. سنختار شخصا آخر من هذه البلدة (وتوجه الى النافذة وأزاح الستار وطلب مني أن أقترب) هاك. أنظر هناك (وأشار الى شبح يترنح تحت عمود النور في الشارع الخالي) يمكن أن نكلف ذلك الرجل هناك بأن يختار لنا ما نطلب"

-"من، هبّاش العرقجي؟"

-"هل تعرفه؟"

-"ومن لا يعرفه في الحي، بل في المدينة كلها؟ انه عجوز وغد متسول لا يكاد يصحو من سكره"

-"ربما يكون الشخص المناسب، ولم لا (وأشار بإصبعه نحوه فالتمعت نهايته بضوء احمر خافت)

-"ماذا تفعل وما هذا الضوء الخارج من إصبعك؟"

-"لا شيء. انني اسجل البيانات الخاصة بهذا الشخص. هاباس اركاجي"

-"هبّاش العرقجي" (صححت له رغم ذهولي)

-"لا يهم. اسمع أيها السيد. سنمنحك سبعة أيام بالتوقيت الأرضي، ونأمل أن تكون قد فكرت جيداً واخترت المدن المناسبة. ولعلمك: نحن نمنح مختارينا أفضلية أن يستثنوا (هم وخمسة ممن يختارونهم بدورهم) من الإبادة في حال قرروا أن تكون مدينتهم بالذات واحدة من المدن التي ستفنيها الصواريخ"

-"أهذه رشوة؟"

-"لا. لكننا نعرف أنكم لا تفعلون شيئاً دون ثمن"

-"ولكن اسمع يا سيد..."

غير أنه كان قد اختفى.. اختفى مثلما جاء!

...

ماذا تقولون؟ ربما كان حلما أو هلوسات في آخر الليل؟

أنا أيضا فكرت في ذلك. قرصت نفسي لأتأكد بأنني لست نائما ثم ذهبت الى الحمام وغسلت وجهي بالماء البارد. حاولت أن أقنع نفسي بنسيان كل شيء، ولكن.. ماذا عن هذه الورقة التي وجدتها متروكة على المنضدة؟ هل تريدون أن أقرأها لكم؟ حسنا:

-"الاسم الرباعي واللقب. محل السكن. العمر. الجنس. الديانة"

ثم هذا الجدول الصغير:

- "اسم المدينة التي ترشحها. واحد اثنين ثلاثة أربعة خمسة ستة سبعة. الدولة التي تقع فيها. سبب الاختيار بما لا يزيد على عشر كلمات للمدينة الواحدة. في حال كون مدينتكم ضمن المدن المرشحة، أذكر أسماء الأشخاص الذين تريد إنقاذهم مع ذكر الأسباب المقنعة، واحد اثنين ثلاثة أربعة خمسة" ثم هذه الرموز أو الأرقام المكتوبة بلغة لا أظن أن أحدا في الأرض يعرف كنهها.

...

ناولوني كأساً أخرى!

والآن. قلتم في أي يوم نحن؟ آها.. الأحد؟

بقي إذن يومان. لا بل يوم ونصف. ثلاثون ساعة وعشرون دقيقة بالتحديد. أرجوكم. افعلوا شيئا! ساعدوني في تحديد المدن السبع وإلا سرقوا صوتي ومنحوه لأي مجنون أو وغد يصادفونه في الشارع.. أرجوكم!

قتل رحيم

غرس الخنجر المذهّب الجميل بين أضلعه وقرب فمه من أذنه وهمس فيها:

-"أنا أحبك. صدقني أحبك"

فتح الرجل عينيه على وسعهما لكنه لم ينبس بشيء، ولا حتى آهةٍ صغيرة. كان يحدق في الفتى بين الدهشة والتساؤل.

دفع الخنجر قليلا بعد، كان يمضي في اللحم اليابس في سلاسة جعلته يشعر بنشوة غريبة.

وتغيرت نبرة صوته:

-"لا تسيء الظن بي. مشكلتك أنك ما زلت واقفا في المكان الخطأ. سامحني أرجوك"

وازدادت العينان اتساعاً ودهشة، ثم غامتا رويدا رويدا.

أنتزع الخنجر على مهل. سجّى الجسد البارد. ذرف دمعتين وتمتم محشرجا:

-"وداعا أيها العجوز. كنت أحبك!"

ومضى ليغسل يديه، ثم أطفأ الأضواء وأقفل الباب في هدوء.. وعلى درجات السلم، كان يسمع وقع أقدام فتيّة واثقة!

١٠ -٥ -٢٠١٤

كيف تكذب على اسير

نعم يا صاحبي. في رسائلنا الى أخي الذي طال أسرِهِ كنا، نحن الأخوة الباقين، نتناوب الكذب. ما خفف علينا هو أن الرسائل لم تكن بتلك الكثرة: ثلاث أو أربع في السنة. من المحرج أن نعترف بذلك ولكن.. نعم. كنا رغم فرحنا بتلقي أخباره ورسائله (خصوصاً رسالته الأولى التي طمأنتنا الى أنه على قيد الحياة) نشعر بثقل المهمة، أعني مهمة الرد على تلك الرسائل، فنتملص منها أحياناً أو نرميها الواحد على الآخر، ليس لقصور في قدرتنا على تدبيج الرسائل (فأنت تعرف بأننا بيت شعر ونثر وأدب) ولكن.. ماذا أقول لك: هل جربت هذا النوع من الكذب الذي لا لون له، لا أعني لمرة أو مرتين ولكن لمرات ومرات، على مدى اثني عشر عاما طوالا؟

في الرسائل الأولى كنا نذكر الجميع بالأسماء:

(الوالد والوالدة الكريمان يدعوان لك على الدوام، والأخوة والأخوات: فلان وفلان وفلان وفلانة..)

نذكرهم واحداً واحدا بالأسماء (.. والأعمام والأخوال والعمات والخالات..) حتى ينتهي الفراغ الذي خصصه الصليب الأحمر على الورقة لذوي الأسير، وعندها فقط نتنفس

الصعداء.

ماذا؟ ولماذا نكذب؟ وماذا نقول له يا صاحبي؟ هل نخبره أن أخاه الصغير "سلام" الذي اعتقل قبل أن يقع هو في الأسر، ما زال مصيره مجهولا، وسوف يظل مجهولا الى الأبد.

-"خذوني الى قبر سلام. أريد أن أزور قبره"

هكذا قال لنا وكأنه يحدث نفسه بعد عودته وافاقته من صدمته بسماع كل تلك الأحداث التي جرت في غيابه - فنظر واحدنا للآخر في حيرة ووجوم. ماذا نقول له؟ هل نقول له إنا لم نعثر له على قبر؟

نعم. في الرسالة الأولى لم نكذب عليه غير هذه الكذبة (فلان وفلان وفلان.. وسلام.. وفلانة وفلانة بخير ويسلمون عليك)

لكن الأكاذيب أخذت تزداد يوما بعد يوم (الحاجّة الوالدة الحنون تسلم عليك وتقبل جبينك وتدعو لك في كل صلاة)

كلا، لم نخبره أن الوالدة لم تعد تصلي ولا تقبِّل أحداً من بنيها وأحفادها. الوالدة الحنون كانت –مثلما تعلم - قد أصيبت بالشلل الرباعي بعد الجلطة الثانية التي أعقبت بأيام تلقيها لتابوت ابنها الأصغر سمير (التابوت الذي ضم بقايا جسده الذي بعثرته قذيفة عمياء على سواتر الحرب) لا، لا،

أنا لا أتحدث عن الجلطة الأولى عندما زرتها أنت وأمك في المستشفى، تلك التي أصابتها بعد أن ثرثرت نساء الحي بأخبار في التلفزيون تتحدث عن قيام الأعداء بقتل الأسرى ورجعت الى البيت وهي تعول وتصيح لقد قتلوا أخاكم. لا، تلك لم تأخذ سوى نصف جسدها! أما هذه فقد حولتها الى تمثال للقهر، الى شبحٍ باهت، الى كومة من العظام اليابسة ووجه لا حياة فيه سوى للعينين المبتلين على الدوام.

غير أننا لم نتوقف عن الكذب (الوالدة الحنون وسلام وسمير يرسلون قبلاتهم ويخصونك بالتحية والدعاء..)

في الرسائل التالية صرنا نقحم اسم أبينا في الكذبة. كان قد مات هو الآخر من القهر، أصابه التدخين المستمر بسرطان في الحنجرة أخرسه تماما لبضعة أشهر قبل ينضم للآخرين (الوالدة الحنون والوالد الكريم وسلام وسمير يخصونك بالتحية والدعاء...)

أنت تتذكر أن أخي كان يتمتع بموهبة نادرة. نعم هي شيء أشبه بالحاسة السادسة وتوقع أمور بعينها، ليس بشكل حرفي تماماً ولكن.. ولماذا أوجع رأسك؟ هل تتذكر كيف توقع أن تنجب أختي الكبرى خمس بنات على التوالي؟ وكيف حلم، قبل وفاة جدي بأيام، بأننا نوزع اللحم على الجيران؟ وماذا قال عندما بدأ ذلك الشيطان بالظهور في

التلفزيون وملأت صوره الجرائد والجدران والساحات والكتب المدرسية:

-"هذا الرجل سيحكم طويلاً، وسيغرق البلاد بالدم ويهلك الحرث والنسل ثم يموت ميتةً شنيعة"

أذكّرك بهذا يا عزيزي لأن أخي ظل محتفظاً بظلال من تلك الموهبة حتى وهو في أقفاص الأسر البعيدة؛ بدون مناسبة محددة ركز في إحدى رسائله على أختنا الصغرى التي كان يؤثرها على الجميع:

-"ما أخبار "حنّونه" وزوجها وأطفالها الحلوين؟ لا أدري لماذا صرت أتذكرهم كثيراً بل وأحلم بهم هذه الأيام! أمانة الله أن تقبّلوا لي وجوههم الحبيبة واحداً واحدا!"

تاريخ كتابة تلك السطور كان متوافقاً بشكل عجيب مع تاريخ هروبها مع زوجها وأطفالها بعد اعتقال أصدقائه الذين "اشتغلوا بالسياسة" ضاربين، عرض الحائط، بكل النصائح والتحذيرات. لقد أحس، وكان على حق، بأن دوره في الاعتقال والتغييب قد دنا فلملم أوراق اسرته وحقائبها على عجل. قبل أن يركب سيارة الأجرة التي توقفت قليلا عند بابنا نهر زوجته وطلب منها أن تكف عن البكاء لئلا تثير الشبهات ثم أخذني جانباً وقال لي:

-"سآخذهم الى زاخو. لي رفاق وأصدقاء فيها. ومن هناك

سأحاول تدبير أمري. لا تتوقعوا منا أية رسائل. عندما أشعر بأنكم لن تتعرضوا لخطورة بسببنا سأرسل لكم أخبارنا مع من أثق به.."

ولم تصل الأخبار!

حالتان اثنتان أصابتنا بارتباك شديد وحيَّرتنا في تدبير اكاذيب ملائمة لتلافيها: الأولى عندما طلب منا (وكانت تلك أول وآخر مرة يسمح فيها للأسرى من الجانبين بمثل هذا الترف) أن نرسل له صورة جماعية لكل أفراد الأسرة. يومها عقد مجلس العائلة (أعني من تبقى منها) اجتماعا تشاوريا توصلنا في نهايته الى أقل الحلول خطراً: أن نتجاهل الطلب!

غير أن الحالة الأصعب كانت في الرد على سؤاله الموجع المحرج الذي ظل يعيده في كل رسالة الى أن توقف من نفسه عن طرحه -ربما فهم الأمر بطريقة ما أو سمع بحالات مشابهة من زملائه الأسرى. كان السؤال في آخر رسالة يجيء فيها على ذكر الأمر موجها الى أخي الذي كان قد استشهد – ويا للسخرية - في نفس تاريخ كتابتها.

-"أخي الحبيب. أنا في غاية القلق على زوجتي وابني وابنتي الحبيبين، إذ لم أسمع أخبارهم منذ شهور طوال ولم أتلق رداً على رسائلي العديدة اليها. أخبرني يا أخي وصارحني أرجوك: ماذا جري لزوجتي وطفليّ؟"

كان العبء في هذه المرة ثقيلاً عليَّ، أنا الذي كلفت بالرد؛ كان علي أولا أن أكتب باسم أخي الذي لم ينشف دمه بعد، وأن أجد طريقة ما لأطلب منه الكف عن هذا السؤال دون أن أصارحه بالحقيقة المرّة التي قد تقتله، دون أن أقول له أن حبيبته التي انتظرها سنوات طوال وتحمل المخاطر والتهديدات حتى ظفر بها بعد قصة حب جميلة وانجب منها هذين الطفلين الرائعين، أن هذه الحبيبة التي هدها الانتظار والحرمان والفقر قد بدأت التجاعيد تغزو وجهها الأبيض الرقيق وصارت خصل الشيب تعلن عن نفسها بكل وقاحة في شعرها الفاحم، دون أن أكاشفه بأن هذه الزوجة المسكينة قد حسمت أمرها أخيرا واتخذت قرارها الصعب: كان الحاج "أبو جواد" صاحب معمل الخياطة الذي تعمل فيه رجلاً طيباً على العموم، وقد تعهد بأن يوفر لها ولطفليها العيش الكريم ويأخذهم معه الى الخليج حيث بدأت أعماله بالازدهار، صحيح أنه يكبرها بعشرين عاماً، وصحيح أنه لم يستطع الانجاب رغم زيجاته الثلاث السابقات، لكنه كما قلت رجلٌ طيب.. وذو صحة جيدة، ومقتدر، وذو نفوذ، وبنفوذه هذا استطاع تسوية الأمور القانونية المتعلقة بانفصالها عن زوجها بكل يسر.

لا تنظر اليَّ هكذا! لو كان بإمكاننا مساعدتها وإبقاءها

وطفليها الى جانبنا لما ترددنا. لا تهز رأسك يا هذا! ما بالك؟ هل فقدت ذاكرتك؟ أنسيت أننا كنا قد بدأنا حتى قبل ذلك بنزع الشبابيك وبيعها بعد ان بعنا الكتب والمزهريات والسجادات والمواعين؟!

...

بعد عودته المفاجئة التي يئسنا منها بكى أخي وضرب على صدره ورأسه ثم سكت طويلا وذهل عن العالم حتى قيل انه جن، لكنه استعاد وعيه شيئا فشيئا ووجد عملاً في فرن صمون قريبنا "غريب" وتزوج وانجب ثلاثة اولاد. صحيح ان أحدهم وجد مقتولا فوق احدى المزابل أيام التصفيات الطائفية (ما زلنا نعتقد، دون أن نواجهه بذلك، بأنه –بإصراره الغريب على تسميته بذلك الاسم الاستفزازي كان سببا لقيام –الجهة الاخرى -بخطفه وتصفيته) لكن بقي عنده ولدان اخران، شابان رائعان مربوعان -ما شاء الله -.. صحيح انه احدهما فقد رجله في انفجار شارع الكفاح الاخير وان الولد الثالث هاجر الى حيث لا ندري، لكنهما حيّان على الاقل.

...

أخي لم يعد يكتب رسائل لأحد، ولا حتى لابنه المسافر. أما نحن فما زلنا مضطرين الى الكذب، وما زلنا أحياناً ننشر صورا في الفيسبوك لنا ولأصدقائنا ونحن في المطاعم ونحن

مبتسمون ليعلق عليها الأقرباء والأصدقاء في أطراف الأرض: منوووورين.. شباب ما شاء الله! ...

نعم، وما زلنا نكتب احيانا رسائل الى الذي في العُلا نقول له:

-"كيف حالك. الجميع هنا يسلمون عليك ويقبلون يديك وينتظرون عودتك لهم بعد غيابك الذي طال.. طال كثيراً.."

١٠ -١٢- -٢٠١٤

خمس خاطرات عن الخامسة

(١)

-"ينبغي أن أعد شيئا للغداء"

تستيقظ الأم فجرا حين تشعر بعودة الكهرباء، كي لتغسل الثياب، وتفكر بصوت مسموع:

-"ينبغي أن أعد شيئا، فلن أعود من العمل قبل الخامسة"

(٢)

-"لم يبق سوى خمسة أيام على موعد الإيجار"

يعد الأب حزمة النقود المجعدة ويدمدم:

-"ترى هل سيرسلون الرواتب من بغداد؟"

لكن صديقه الذي ببغداد يضرب بقدح الشاي على المنضدة ويشتم وهو ينصت لعربات الإسعاف:

-"أيها الكلاب. هذا خامس انفجار منذ الصباح!"

-"تبا" يقول السياسي "لماذا يملك منافسي خمسة مليارات، ولا أملك غير أربعة ونصف؟"

(٣)

-"اليوم هو الخميس" يقول المجاهد القادم من بلاد بعيدة "علي حتى الغد، وقبل موعد الخطبة، أن أذبح خمسة كفار، قربةً الى الله تعالى!"

(٤)

-"إنها الخامسة بعد الظهر،

تمام الخامسة بعد الظهر"

يقول لوركا وهو يرثي صديقه مصارع الثيران المضرج بدمه.

-"بخمسة بيزيتات. اشترِ منديلا مطرزا لفتاتك بخمسة بيزيتات!"

كانت الشابة الغجرية تصيح خلف أسوار الملعب.

(٥)

-"دن، دن، دن، دن" تقول الساعة " لن تستطيع قوة على الأرض أن تعيدني.. ها قد مضيت، مضيت الى الأبد!"

السيرة الذاتية

ماجد الحيدر

قاص وشاعر ومترجم

ولد في بغداد عام ١٩٦٠

تخرج من كلية طب الأسنان/ بغداد ١٩٨٤

عضو الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق واتحاد الأدباء الكرد

من أعماله المنشورة :

١. النهار الأخير (مجموعة شعرية) – بغداد ٢٠٠٠
٢. في ظل ليمونة (مجموعة قصصية) - بغداد ٢٠٠١
٣. ماذا يأكل الأغنياء (مجموعة قصصية) - بغداد ٢٠٠٢
٤. مزامير راكوم الدهماء وقصائد أخرى (مجموعة شعرية) – بغداد ٢٠٠٢
٥. نشيد الحرية وقصائد أخرى لشيللي(ترجمة) -دار الشؤون الثقافية -بغداد٢٠٠٤
٦. الإيدز بين المناعة والفيروس - دار الشؤون الثقافية -بغداد ٢٠٠٤
٧. عبور الحاجز -قصائد من الشعر العالمي (ترجمة) – دار المأمون -بغداد ٢٠٠٧
٨. ناجون بالمصادفة (مجموعة شعرية) – دار سبيريز -دهوك

٢٠٠٩

٩. ضحك كالبكاء (كتابات ساخرة) – منشورات ملتقى الأهالي -بغداد -٢٠١٠

١٠. الثلج والنار والأغنيات -مختارات من شعر مؤيد طيب (ترجمة) – دار الثقافة الكردية -بغداد ٢٠١٠

١١. مالاني (قصص قصيرة بالكردية) – منشورات اتحاد الأدباء الكرد -دهوك ٢٠١٢

١٢. The Psalms of Rakoom the Black and Other Poems–Proclaim Press–Pittsburgh–P.A.–USA

١٣. Yes, It's Me– Selected Poems–Union of Kurd Writers–Duhok–٢٠١٤

١٤. في الذكرى السنوية لرحيلي (قصص قصيرة) – وزارة الثقافة – بغداد - ٢٠١٤

١٥. غلطة من هذه؟ (مجموعة شعرية) – مطبعة جامعة دهوك -دهوك ٢٠١٥

majidalhydar@yahoo.com

majidalhydar@gmail.com

فهرست

الفارس العجوز وحصانه الصامت النبيل ٥
الملاك الألثغ الصغير ١٣
توابيت صغيرة للسلوى ٢٠
هامش عن الحكاية الأصلية ٤٢
الإله الأعسر ٤٦
CH_3CH_2OH ٤٧
الأغنية ٥٠
محاضرة ٥٢
حديث جانبي على هامش ندوة ٥٣
سبع قصص قصار عن نهايات السفر ٥٤
- فراشة ٥٤
- أمنية رجل عجوز ٥٤
- عصا ٥٥
- أين ذهب الناس؟ ٥٦
- قابض الأرواح -١ . . . . . ٥٦
- قابض الأرواح -٢ . . . . . ٥٧
- آدم ٥٧
خمس مسرحيات قصار جدا ٥٨
- مونولوج طويل لرجل مخذول اعتادت الكلمات على خيانته . ٥٨

- ديالوج بين رجلين فقدا السمع في الحرب ٥٨
- ديالوج بين رجل مقطوع اليدين وصديقه الحالم ٥٩
- وجه مألوف ٥٩
- ماذا تقصد؟ ٦٠
أحذية ٦١
حديث .. في غرفة نوم ٦٤
حكاية الذي رِجله أطول من لحافه ٦٦
حكاية الرجل نصف العاقل الذي يكلم نفسه في الحديقة . . ٧٢
حكاية عراقية للنوم ٧٥
يومَ قُتِلَ الخليفة ٧٧
متحف.. للمستقبل الباهر ٧٩
هي.. وهي ٨٠
وجهة نظر ٨١
يوسف الذي بيته في الصدرية ٨٢
حكاية الصبي المليح الذي يحب كرة القدم ٨٤
تقرير مئوي عن حالة كوكبنا البعيد ٩٠
ألَمائيل ٩٢
حوار في ساحة التحرير ٩٤
سبع مدن.. سبعة صواريخ ٩٩
قتل رحيم ١٠٦
كيف تكذب على أسير ١٠٧
خمس خاطرات عن الخامسة ١١٥

مازالت موهبتي في تفسير الأحلام على حالها. وما زلت عفيفاً طاهر اليد والطوية. ربما نما لي كرش صغير وسقط واحد أو اثنان من أسناني، لكنني ما زلت وسيما بعض الشيء. فلماذا لم يكرمني الله كما فعل مع يوسف الأول؟ ولماذا لم يجعلني على الأقل حاكما ولو لبضعة أعوام (لا أريد الذهاب الى مصر، تكفيني مدينة صغيرة نائية) ريثما أجمع قليلا من المال لأرسل أمي الى الحج، وأشتري سيارة بيك أب مستعملة، وأتزوج (على سنة الله ورسوله) جارتي العمياء التي أحلم بها كل ليلة، وأركّب لابن أختي المسكين قدما صناعية بدلا من تلك التي فقدها في الانفجار؟